أرواح في العتمة

أرواح في العتمة

مجموعة قصصية

الحسن أيت العامل

أرواح في العتمة

مجموعة قصصية

اسم الكاتب: الحسن أيت العامل
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٥٧٥ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهـداء

إلى شيخي الأستاذ العلامة: د. محمد خطابي

عربون محبة ووفاء.

عودة الروح

"بعض الأرواح تعود مهما ماتت أجسادها"

كانت فاطمة ممددة على سرير مهترئ في المستشفى الإقليمي ما بين الحياة والموت. ضربات المشرط لا تحدث أي إحساس بالألم في يدها. كانت تنز دما والطبيب يخيط يدها. "غُرْزَة" هنا وأخرى هناك، دون شفقة ودون رحمة.

أنظر إلى وجهها الشاحب، فأفقد ذاك النور الذي يتصاعد منه بقوة في كل ابتسامة ترميني بها. أفقد صوتها العذب، دفأها الغريب، دقات قلبها. في حالة من السكون وفوضى الحواس، بل في لجة من القهر النفسي، أستشعر صوتها الملائكي يقول لي: "كن أنت، عش حياتك بعدي مثلما عشتها معي".

أمواج من العتاب واللوم تتلاطم بداخلي، وتأخذني بقوة لتقذف بي في ساحل معطوب ومهجور. أحاول أن أرسو، لكني أسيء تقدير المسافة. يبدو لي، دائما، المرسى قريبا، لكني أقع في البحر، ولا منقذ لي. فكيف يتشبث المرء بحلمه؟ وكيف للحلم أن ينقذه من و اقع مهيض؟ أن يتشبث غريق بغريق خير له أن يتشبث بحلمه في وطن يرفض الأحلام ويأباها. أصرخ ملء فمي، و أناجي، وأدعو، و أتضرع... لكني أتعذب وأغرق، وأحس ما أحسه فرعون: لقد آمنت بما آمن به المرهفون والعشاق.

وحده صوتها الملائكي تخطفني من فم الأمواج العاتية. استفقت من دوامتي مذعورا ملوما مدحورا. كاد الصداع يفلق رأسي نصفين: "هل تموت وتتركني حبيبي؟" هكذا تلفظت أولى كلماتها بعد أن استفاقت من غيبوبتها.

رست على خدي بلورات من الدموع مكورة. تعجبتْ، وقالت:

- وهل يبك الرجال حتى تبكي؟

- قلت: نعم يبكون.

- قالت: ومتى يبكون؟

- قلت: حين يقصفون، أو يصعقون، أو يرمون بسهم حب؛ يبكون زمن الفراق، وزمن الوصال.

استفاقت فاطمة من غيبوبتها آملة أن أعينها كي تندمل جراحها الظاهرية مع مرور الوقت. أما أنايا فلم تستفق من قلبي الذي كان مهددا بالتوقف في أي لحظة. كنت على شفا حفرة من الحرمان؛ إذ كنت عاجزا عن رد فاطمة إلى الحياة. كادت حياتي تنهار، وكانت جهنم تقول، وهي فاتحة فمها: "هل من مزيد؟".

أدركت للحظة أن الشيطان لو كان يعين الإنسان في الدنيا، لمنحني الأمل؛ أمل أن تبقى فاطمة إلى جانبي، فتستقدم ساعة، أو لطلب مني أن أكفر مقابل الرحمة، أو الخلاص الأبدي من ظلام الفراق ومرارة طعم يشبه الزقوم. الشيطان، إذن، يبيع الوهم ولا يعد بالأمل؛ لأننا نحن من نزرع الأمل ونربيه في قلوبنا ليترعرع شيئا فشيئا كلما اتسعت جراحنا وعظمت آلامنا.

إن الأمل حلمنا المشتهى، وشجرتنا التي نستظل بأغصانها وفروعنا، إن نحن أحسننا تشذيبها وتهذيبها، والعناية بها. الأمل قوة من لا قوة له، وذاكرة من لا ذاكرة له، وماضي من لا ماضي له، ولغة من لا يحسن النطق، وجنة الأرض التي تأوي المعدومين والبررة العجزة.

كان إلى جانب سرير فاطمة سرير آخر. أحسست للحظة أن يدا ثقيلة دفعتني من الخلف بعدما أحسست برجلي ثقيلتين ومتراخيتين.

اندفع جسدي على السرير، كأنما تقاذفتني أمواج هائجة شرسة، ثم وقعت على وجهي. ثم فقدت الوعي، فقدت الإحساس، وفقدت فاطمة الأمل؛ أمل نجاتي لبرهة، بعدما فقدني الطبيب.

لقد فقدت كل شيء من حولي. حواسي تغوص شيئا فشيئا في فوضى ودمار شامل. وحده صوت ملائكي، أحسبه لفاطمة قال لي: "تشبث بالأمل، لأنك أنت الأمل. أنت أمل نجاتي، فعش كي أعيش. كن كي أكون. أو دعنا نمضي معا؛ فلا داعي لحياة كورقة مشطب على إحدى صفحاتها. فكن صفحة، أكن صفحة؛ كي نكون ورقة واحدة".

تدفقت الروح مجددا في جسدي، واندفع جسدها الملائكي نحوي بجراحه الغائرة: "غرزة"، "غرزة"، جرحا، جرحا... وقنينة الأكسجين معلقة، وموصول بأنفها الصغير وفمها الشهد أنبوبها، ثم حضن جسدي المرتعش المتعرق البارد، الذي يشبه عصفورا صغيرا سقط في بركة ماء بارد، ثم خرج لتوه منها.. هكذا كنت ساعتها.

قبلة واحدة منها بجراحها كانت كافية كي تتدفق الروح وتعود من جديد بعدما سلمت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا.

وكانت هناك فراشة بكل ألوان الكون المعروفة لدى الفنانين، وألوان أخرى، تجيء وتروح، وتطوف برأسينا، محدثة رفرفة بجناحين منكسرين.

في تلك اللحظات الصماء القاسية والحاسمة في آن، كان علي أن أشفى قبل أن يرتد إلي طرفي. كان علي أن أتقوى بكل لغات الكون، كان علي أن أخرج روحا أخرى من داخلي، حتى أقوم من مقامي، حتى لا أرى فاطمة تعتصر دمعا ودما لأجلي.

في هذه اللحظات، عليك أن تكون أدق كاتب، وقارئ، ومؤول لما يحوم حولك من علامات: رمز، أو عقد، أو حال نصبة، أو كلام. هكذا قالها الجاحظ. تقرأ كل فصل بكل تفاصيله الصغيرة والرتيبة؛ حرفا فحرفا، ونجما فنجما، وفكرة ففكرة، وجرحا فجرحا، ونزفا فنزفا.. حتى تحب أحباءك حبا جما، وحتى تستوي الفكرة الصغيرة وتنبت سبع سنبلات خضر، في كل واحدة ألف فكرة ونجمة وجرح.

أحيانا تهجرنا الروح. لتبحث عن جثة تستحقها. لكنها لا تجد سوى جثث مسحوقة وممحوقة ومطحونة من قبل الزمن.

الوطن، أيضا، يطحن فينا كل روح طيبة وبريئة. يفقدنا الإنسانية ويمنحنا الخراب والدمار والأحزان والجراح. إن الأرواح الطيبة تأبى الجثث المعطوبة.

ما يزال جسدها المهترئ المدمي مسندا على جسدي، وأحس قلبها مشرعا بقوة ألف حصان أمام قلبي الذي يستقبل الحياة مرة ثانية. ببطء شديد تناجت قلوبنا. خاف قلبها أن يفقد قلبي ذاكرته، وينسى هوية قلبها كأن لم يغن بالأمس. لكنها تأكدت أن القلوب لا تموت ، وإن مات حاملوها. فالجثث آيلة للفناء بينما تظل القلوب حية؛ يزور بعضها بعضا، ويضم بعضها بعضا، ويتألم بعضها لتألم بعض. هذه هي حياة القلوب ومشيئتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها جميعا. وتزداد هذه المشيئة قوة، والصلة صلابة كلما كانت هذه القلوب بين ضلوع في صدور لجثث فقيرة؛ فقد قيل لي: إن قلوب الضعفاء والمسنين على هذه الأرض، وحدهما تواسي ألم بعضها. إن القلوب الرحيمة، إذن، توجد في أجثاث المسنين، والمعدمين، والفقراء، والمساكين، والأقنان.

والجسد الضعيف كثيرا ما يحمل قلبا رحيما. هكذا قال الملأ إذ رأوا أن الدين ما دخل فيه إلا الأراذل. فهل معناه أن المتدينين بؤساء؟

أعلم أن النهاية معلومة لدى الجميع؛ قبر منسي وسط صحراء قاحلة. وأن جرارا قد ينبش التابوت بعد أن يحرث الأرض. لكن اعلموا أننا قبور ميتة تسير، الآن، حتى إشعار آخر. فتذكروا يا أولي الألباب.

النهاية، إذن، معلومة. فلماذا يصر الناس على تجاهلها؟ ولماذا يصرون على توهم نهايات سعيدة؟ كل النهايات السعيدة في الروايات، والحكايات، والقصص...كاذبة. فلا توجد سوى نهاية واحدة؛ فناء الأجساد، وانتشار الدود فيها بعد أن ينتشر فيها العطب في الحياة.

انتقام

"يعذب الكُتاب أنفسهم، وهم يعلمون أنهم سيعبرون من الدنيا مرة واحدة"

كان يوسف جالسا على مكتبه الصغير في تلك الغرفة الضيقة المطلة على حركة الناس في الشارع. الأفكار مزدحمة في ذهنه، والأشياء مزدحمة في الغرفة، والناس مزدحمون في الشارع إذ يطل عليهم؛ الفكرة الجيدة لا تستسلم بسهولة لتخرج من الذهن من بين مئات وآلاف الأفكار. لذلك نحتاج إلى خلوة، بل خلوات، وإلى تأمل دقيق، بل تأملات، وإلى كوب قهوة سوداء، بل أكواب، وإلى لحظات نستلها من معجم الوقت مثلما تستل الشعرة من العجين، حتى نتمكن من أن نستل من معجم الوقت هذه الفكرة من بين مئات الأفكار.

في تلك الليلة الحالكة، كانت النوافذ تلتصق بإطاراتها الخشبية بفعل هبوب رياح قوية مصحوبة بقطرات باردة من المطر، كان قد احتسى عشرات من أكواب القهوة السوداء، ودخن ثلاث علب من التبغ.

توهج المصباح، الذي علقه خارج غرفته، بالأحمر بعدما أشعله، حتى ينبئ الآخرين بانشغاله بأعماله في المكتب. فقد كانت امرأته، دائما، إذ تحمل إليه القهوة، أو مضغة من الطعام، خوفا على صحته المتدهورة "بالسكري"، تعود أدراجها دون إحداث أي جلبة في الجوار. تعلم أنها ستسمع

منه كلاما لن يروقها حين تدخل إليه حاملة إليه الطعام ككلب جائع حان وقت إطعامه.

لكنها، اليوم، لم تتراجع خطوة إلى الخلف، ولم تعد إلى أدراجها أبدا. فتحت الباب في هدوء تام دون أن يحس بها. ولما دخلت، خارت قواها، واستغربت لما عاينته.

كان يوسف يجلس على مكتبه شبه عريان، وقد أحدث فوضى عارمة في الغرفة. كل كتبه التي في الرفوف ألقاها على الأرض. كوّم ملابسه في زاوية، ضباب السجائر يعم المكان، في الزاوية، التي بها سلة المهملات الحديدية المقعرة، بقايا كتاب قد أحرقه.

الكتاب المحروق لكاتب فرنسي مشهور. هذا ما تبينته زوجته حينما ألقت نظرة في القمامة؛ إذ ترك صفحة الغلاف لم يحرقها.

كومة من الأوراق المستعملة مُزّقت بعصبية، وأخرى هُشِّمت بعنف. وإلى جانبه أخرى مُشطّب عليها بقوة حتى كاد القلم يخترقها. يدُه اليمنى التي تُمسك بالقلم تَرتجف، يده اليسرى ممسكة بمقدمة رأسه بشدة. شفتاه يظهر عليهما أثر تخثّر الدم؛ لأنه أطبق عليهما أسنانه بحثا عن الفكرة.

يعذب نفسه كي يحصل على فكرة قد لا تسمن ولا تغني من جوع. يعذب كل عضو فيه عله يصل إلى تغير في بنية العقلين العربي والمغربي. بماذا ستفيده فكرة ستوضع في إحدى صفحات كتاب قد يقرأ وقد لا يقرأ؟ وحتى لو قرئ، فمن ذا الذي سيحس بالألم الذي اعتصره، حتى استلها من بحر من

الأفكار لجي يغشاه الخطر من كل مكان؟ ماذا لو قُرِئ كتابه، ودخل به السجن، وذاق ضِعف العذاب؟

"ربنا لا تُعذبنا بما فعل السُّفهاء منا"، "ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به". وطاقةُ الكتابة شيءٌ لا يُتصوَّر؛ إنّها شيء فوق الخَيال.

كانت زوجته تَعتصرُ الألم خارج غرفته خوفا عليه؛ فهو لم يبرح هذه الزنزانة منذ أكثر من ثلاثة أيام. يشرب الماء، ويدخن السجائر، ويدخل إلى مرحاض صغير لقضاء حاجته.

وكانت كلما حملت إليه الطعام، ووجدت المصباح متوهجا عادت. وها هي، اليوم، تحمل "الصّينيّة" بكل ثقة و أناة، مستعدة لتلقي أفظع الكلمات النابية حتى تنقذ حياته من موت محقق.

استدراك: داخل الغرفة الصغيرة، يوجد مرحاض صغير محاط بجدار من الألمنيوم والزجاج.

لا يزال منهمكا في استخراج الفكرة، والبحث لها عن مرسى، لكن زوجته أصرت على مقاطعته لما وضعت الطعام على مكتبه الصغير. أحس بوجودها. فجأة، طارت الفكرة/ الأفكار بعيدا. حاول أن يتذكرها عله يقبض على رأسها كما يفعل مروض الحيات. لكن أفكاره تشظت؛ فلا هو أمسك برأسها، ولا هو أمسك بذيلها. انتفض، ووقف في حركة سريعة كعمود، تسمر في مكانه، واخترق نظره الحاد براءتها، ثم أطلق العنان للسانه الحاد السليط. تطاير الزبد من فيه، واحمرت عيناه كثور فحل.

لم يعد قادرا على ضبط أعصابه وحركة يديه المرتعشتين. وحينما أحست زوجته أنها شيء زائد في حياته وأدارت ظهرها لتخرج، أحست بشيء حاد يخترق جانبها الأيمن. لم تتوقع أن يطعنها زوجها بالسكين، الذي كان مع الفاكهة.

يده ترتعش، السكين داخل حتى قبضة يده في أحشائها. بقع الدم تتساقط على السجاد الأخضر، الرياح تدفع نوافذ الغرفة بقوة، زوجته تنطق الشهادة، دمعتان تسيلان على خديها، خرجتا بصعوبة من عينيها، حينما أطبقتهما ثم فتحتهما، شريط من الذكريات يمر بين عينيها: صور ترتدي فيها خاتم الخطوبة وهو (خطيبها) ممسك كتابا، صور أخرى تتسلل بسرعة البرق يجلسان فيها في مطعم فاخر يتناولان العشاء الأول بعد الزواج. كانت هي منهمكة في إشعال الشموع، بينما كان هو يقرأ رواية بضوء الشموع، وكلما أشعلت شمعة أخرى، زاد توهج المكان، واستبشر بوضوح الأبجدية. صور من ليلة الدخلة ترتدي فيها فستانا أبيض، بينما هو غارق، قبل دخولها إلى الغرفة، في القراءة. أخيرا، صور سريعة وهي تتحمل أعباء البيت، وتجمع الفوضى التي يعيش فيها.

كان عليها أنْ تدرك أنّ الكاتب يحتاج إلى عزلة، وإلى من يشاركه ألم الكتابة والقراءة. كان عليها أن تعي أن الكتاب يكتفون في طعامهم بالتهام الكتب، وكتابة أخرى. كل حياتهم عزلة، ومعاناة، وألم، وتمزق، واضطراب.

هي لم تدرك هذا حتى لفظت أنفاسها الأخيرة. هكذا هي الحياة؛ لا نعرف ماذا نريد؟ ولا كيف سنصل إلى ما نريد؟ إلا حينما نتذوق المرارة، ونعتصر الألم، وتشق الكلمات قلوبنا لتترك ألف جرح ونزف.

لقد أدركت أن التفاوت الفكري أشد خطورة من التفاوت الطبقي.

سَلَّمت زوجته فاطمة روحها لله، فيما لم يفق يوسف من وقع الصّدمة إلا بعد شهور. اقْتِيد إلى مخفر الشرطة قصد التحقيق معه، فُتّشت غرفته تفتيشا، وشُرحت جثة زوجته، وعُلّقت نتائجُ التشريح ورفعُ البصمات، من على السكين، لأسبوع. ولما ظهرت، وجدوا بصمات زوجته على السكين. فقد ضحّت بحياتها مرتين: مرة حين تزوجت كاتبا، ومرة حينما أمسكت بيد السكين بعد أن طعنها حتى تبقى بصماتها هي.

إن الذين يحبوننا يضحون لأجلنا حتى في اللحظات الأخيرة. أدرك، الآن، أن ما قام به لا يستحق ذلك؛ فأن يسجن نفسه لأجل فكرة سيسخَر منها بعض المراهقين، أو ينتقدُها بعض المبتدئين، ويُصدروا على منوالها أَحْكَامَ قِيمَةٍ، لا يستحِقّ.

كان عليه أن يحب زوجته كما الجميع، في مجتمع لا يؤمن بالفكرة، كان عليه أن يبني بيتا دافئا، ويوفر الأمان لزوجته، لا أن يكون مصدر الخوف وجلب التوتر والشكوى. كان عليه أن يضع قطعة سكر في فنجان القهوة المُرَّة، ويمزجها بالحليب؛ فالحياة تحتاجُ إلى هذه الإضافات التي تزينها، وتزخرفها، وتُشَذِّبُها، وتُهذِّبها..

لماذا يصِرّ أن يكتب حينما ينام الناس؟ ألم يجعل الله الليل لباسا؟ والنهار معاشا؟ فلماذا يصر على عكس الأمور؟

الكُتّاب يسعون إلى خرق القوانين الإلهية، والطبيعية، والكونية. يريدون أن يكونوا مختلفين ومُميّزين. لكن ما فائدة التميُّز في أوطان تحرق التميز؟

إن الكُتّاب شرذمة نرجسيون. يفكرون في أنفسهم، وقد يتخذون ظهور الآخرين سلالم لبلوغ المراتب. إنهم مرضى بحاجة إلى فهمهم، وعلاجهم، أو اسْتِئْصَالهم. هي حقيقة مرة، لكن عليهم تقبلها.

الكتاب المحروق

"بعض الكتُب تستحقّ الحَرق إذَا كَثُر ضررها"

قالت مريم ليوسف: ما حقيقة الكتاب المحروق الذي في سَلَّة القمامة؟

أجاب وزفرة تفصح عن تأفف وألم حاد:

كنتُ مشغولا بكتابة رو اية حول السّلطة والعرش، وكنتُ قد أفرغتُ كل وقتي، وطاقتي، وحُبّي، ولذتي..لهذه الرو اية. اخترتُ شخوصها بعناية فائقة، وكنتُ أخطّط لمسارات الحكي والسرد في كل مرة. كان كل شيء في مستوى عالٍ من الدقة والتخطيط.

زوجتي أعانتني بصبرها، وإعداد فناجين القهوة، وامتصاص آلامي، وصرخاتي. ظلمتها كثيرا. لقد كنت أنانيا حين تركتها تنام في غرفة و أنا في غرفة رغم جِدّة زواجنا. كان بإمكانها أن تخونني مع رجل آخر في غرفتها و أنا منهمك في الأوراق والكتب. لكنها لم تفعل. بل صبرت، و انتظرت على أحر من الجمر أنهي هذا العمل.

ذات أمسية ثقافية، دعيت إليها، لاقيت صديقا لي. كان هو الآخر من الكتاب الذين ذاع صَيْتُهم. تبادلنا الأفكار حول أعمالنا الجديدة، ومشاريعنا التي في الأوراق، وعلى مكاتبنا، وفي أذهاننا. ولما حكيت له شيئا من مشروعي الذي هو رو اية "السلطة والعرش"، قاطعني قائلا: "لن تجد أحسن من رو اية قرأتها في الأسبوع الماضي". مدّ يده إلى حقيبة لا تفارقه، واستل منها كتابا

صغيرا نِصْفُ غلافِه أبيض، ونصفُه الآخر أزرق. في الأعلى اسم رو ائي فرنسي مشهور، وأسفله، وبخط بارز مضغوط، عنوانُ الرو اية، وأسفله صورةٌ لكرسي العرش.

فتح الصديق الرو اية، وعلى صفحتها الأولى كتب بقلم أسود: "إهداء إلى الصديق المناضل يوسف". وأسفل العبارة أضاف: "بعض الأفكار سُمُوم وضجيج حين تلتقي. لكن الحياة كلها يَحكمُها مَثَلُ وقْعُ الحافر على الحافر".

قرأت الإهداء أمامه واصطنعت ابتسامة صفراء. فأنا لم أفهم بعد سبب هذا الإهداء. لم أُعِرِ الرو اية أدنى اهتمام. فحين عدت من الأمسية الثقافية إلى بيتي، وجدت زوجتي مستلقية على "الفوتوي" في الصالون. كانت الملاءة مزاحة عن جسدها، ور أيتها مكومة تُقاوم البرد، وفي الوقت نفسه جعلت منه منبها حتى تستيقظ في كل لحظة وترى هل قدِمتُ أم لا؟

عَالجْتُ الباب بالمفتاح، أشعلتُ المصباح، نظرتُ إلى زوجتي وعطفتُ عليها، وأحسستُ بالذنب لأنها تتحمل أن تعيش بقيّة حياتها مع رجلٍ أنَاني يُفضّل أن يعيش العُزلة مع الكتاب على أن يكون اجتماعيا يتبادل أطراف الحديث مع زوجته، وأصهاره، وجير انه...

استفاقتْ ونظرتْ إليّ باسمة مُحاولة أن تفتح عينيها. ابتسامتها تلك كانت مصطنعة؛ فأنا أعلم متى تصطنع ومتى تصدق في مشاعرها.

قامت من مقامها، أخذت بذلتي، ألقتها على المنضدة في الزاوية، ثم حملت حقيبتي و اتجهت بها إلى غرفتي. اقتفيت أثرها، فوجدتها تفتش داخل الحقيبة، ثم أخرجت بعض الكتب التي جئت بها ثم صنفتها في أماكن شاغرة

بين الرفوف. وبينما كانت تفعل ذلك بحركات سريعة، حتى تصطحبني إلى فراشها، وقعت عيناها على الرو اية التي أهداها لي الصديق. أثار انتباهها شكل كرسي العرش الذي يشبه "الفوتوي" الذي كانت ممدة عليه. وحتى لا تناقش الكتاب وغلافه، أسرعت في البحث عن مكان شاغر بين الرفوف.

جردتني من ثوبي، وجردتني من كل شيء عالق بذهني. كانت ليلة مفعمة باللذة والحياة رغم العتمة. النساء يصنعن اللذة متى شئن، ومع من شئن، وكيف شئن. وحدهم الرجال لا يعرفون.

مرت شهور ويوسف يحاول أن يكتب شيئا جديدا في رو ايته. لكنه وصل إلى مرحلة لم يعد فيها قادرا على صياغة جملة مفيدة. الأبجدية لا تسعفه، وكل جملة يكتبها تبدو له غير منسجمة. كل فقرة يرى فيها مائة خلل. يشطب على الورقة ويلقي بها جانبا. يُوسْوس له صوت: "لو عدت إلى ما كتبته في هذه الرو اية سلفا وقر أته، لشطبت على كل حرف، ولتبرأت منه قبل أن تُقْدِم على نشره..".

كثيرا ما نُعجب بما نكتبه في أول الأمر، لكن سرعان ما يظهر لنا النقص الذي يعتريه، والزلل الذي وقعنا فيه. لأن الإنسان، وإن كان عاقلا، ناقصٌ. وليست العتمة سوى دليل على تِيه الإنسان ونقصه حين يبحث عن الضوء.

يواجه يوسف الصوتَ صارخا: "الحياة كلها يشوبها الخلل. فلو عدنا إلى ماضينا، لشطبنا فيه على أحداث عشناها، وشخصيات عرفناها، وأمكنة زرناها فندمنا، وكتب قر أناها، وطرق سلكناها، ومستحضرات

اقتنيناها...لا نندم على ما أنجزناه سوى حين تتضح رؤيتنا للكون، ولمن حولنا".

يتمكن يوسف من إسكات الصوت، لكنه لا يتمكن من تنظيم أفكاره، ولغته، وأسلوبه ليكتب جملة.

يرفع بصره ليجول به بين الكتب في الرفوف، تقع عيناه على هدية صديقه. يستخرج الكتاب بعناية، يمسح عنه بعض الغبار، يفتحه، ثم يشرع في القراءة و اقفا.

ثلاث ساعات، من الوقوف دون أن يشعر، كانت كافية على التهام كل صفحات تلك الرو اية. أسلوب المبدع سلس، أفكاره فلسفية وعميقة، لغته واضحة شفافة ومختصرة. أعاد يوسف قراءة الرو اية جالسا. وكان يقف وقفة تأمل واستغراب عند كل فصل، وأحيانا يحس باختناق شديد، وأحيانا يحس أنه يتجرع سما من هذه الرو اية، وأحيانا يحصل على الترياق. وكان، عند كل فصل، ينزع عنه شيئا من هندامه. ولما أنهى الرو اية، وجد نفسه عاريا.

لقد جردته أفكارها من هندامه، فبدت عورته وسوءته. يا للعجب. "ربنا لا تؤاخذنا بما سوّد البشر منا".

صمت يوسف، ثم سألته مريم: "ماذا كان مضمون الرو اية وفحواها؟". يجيبها في تأنٍ: "كانت نسخة لرو ايتي التي على المكتب".

– كيف؟ تسأله مريم.

- إن رو اية ذاك الفرنسي تطرح أسئلة رو ايتي التي لا تزالُ في الأوراق. كلّ ما كنتُ أناقشه من أفكار، وأطرحُه من حلول تحدث عنه. لم يترك لي مجالا للشك أن أحدنا سرق فكرة الآخر، بل عمله.

شككت أن يكون هو السارق. لكنني تراجعت وبرّأته حينما عدتُ إلى سنة النشر، فوجدته قد نشر رو ايته بسنة كاملة، أما أنا فرو ايتي ما تزال مخطوطة على مكتبي، أُضِيف إليها تارة، وأحذف أخرى.

لما تبين لي أنه قد سبقني إلى الفكرة، وأنه بريء، شكرتُ الله، وحمدته في آن؛ لأنني لم أنشر مخطوطتي، وإلا لاتهِمتُ بالسرقة، والسّلخ من طرفِ النّقاد والدارسين وربما يرفع السماعة، ويركب أرقام هاتفي ويغتصب أذني بتهمة: "أنت لص... أنت سارق. لكنك لست لصا ماهرا بما يكفي لتخفي أثر جريمتك. كان عليك أن تسرق الصغار أولا، لا الكبار".

وربما يُرسل لي رسالة عبر البريد الإلكتروني يهنئني فيها بمهنتي الجديدة: "اللصوصية، وسلخ الأفكار". وربما يدعوني إلى لقاء، أو مناظرة أمام أعين الناس، ويقول لي: "ألق ما أنت ملقٍ، وأخرج ما لديك من سحر أيها اللص، وأنبئنا كيف تسلخ النصوص والأفكار...؟" وحينها سأجدني نكرة أمام الناس. فكل الأدلة ضدي، وأولها تاريخ النشر، والتاريخ لا يرحم أحدا.

إن لذة السلخ لا مثيل لها. لكنني بريء من كل هذه التهم التي وجهتها لنفسي. أعلم أنني إذْ شرعت في كتابة مسوداتي، لم أطلع، أبدا، على رو اية ذاك الفرنسي ولو في الحلم.

لقد حلمت كم مرة بعناوين لرو ايات عالمية ولكتاب كبار تحكي عن مواضيع معينة قبل نشرها. وكنت أفاجأ، دائما، بنبأ صدور رو اية معنونة بما حلمت به. كان ذلك يشكل لي عائقا في حياتي. فكل أحلامي تتحقق. كنت أخال نفسي كائنا بشريا بمواصفات خارقة. لعلي ورثت علم الفراسة، ولعلي أوتيت من الأنباء ما أوتي هدهد سليمان، ولعلي أصبت بخلل في الدماغ؛ فاختلط عندي عالما الحلم والو اقع.

لكنني، مع مرور الوقت، صرت أألف وضعيتي الجديدة. بل صرت أعرف ما سيصدر عن دور النشر العالمية، وصرت أعلم من سيحصد جائزة من الجو ائز العالمية من الكتاب، ومن يتواطَأ مع كُتّاب ودور نشر، حتى تحصد أسماء، دون غيرها، هذه الجوائز بعيدا عن الجدارة والكفاءة.

يكفي أن أضع رأسي الملآن بضجيج الأفكار، والأسئلة، والناس، وحب الوطن، وجروح المعطوبين، وتصادي النصوص حتى أعلم ما سيحدث حولي، ولمن حولي.

إن ما كتبته هذه المرة في مسوداتي لم يكن حلما، ولا أفكارا قرأتها في مقالات أو كتب، أو حكايات سمعتها من أفواه الحكواتيين ذات زمن فطفت على سطح الذاكرة ولما ازدحمت وصارت تحدث طنينا، وألما حادا، أمسكت بها ذات لحظة فأخرجتها كما يخرج مروض أفعى من داخل جحرها، ثم أثبتها على الورق.

كل هذا لم يحصل معي. لكن من سيصدق هذه الحكاية؟ فهم سيقولون، أيضا، إن ما يحكيه هو، الآخر، من أضغاث أحلامه. وما نحن بتأويل هذه الأضغاث بعالمين. لذلك فضلت حرق رو اية الفرنسي وترك صفحة غلافها.

تسأله مريم: "وهل حرقكَ الكتابَ أنساك أفكاره؟".

لم أنسه قط. بل من رماده بعثت هذه الحكاية، التي أحكيها لكم، كما يبعث طائر الفنيق. لما قرأت رو اية ذاك الفرنسي كان عليّ أن أحرقها أو أحرق رو ايتي، التي ما تزال مخطوطة. فقد لاحظتْ زوجتي تقلب مزاجي، وقلة حديثي، وخمود لذتي، وكثرة شرودي، وتقلبي في فراشي. بل كنت أفضل النوم، داخل غرفتي، بعيدا عن زوجتي؛ فلا قيمة لرجل خمدت لذته.

أتحاشى النظر في وجه زوجتي كأنما ارتكبت جُرما شنيعا، وأن كل قو انين الكون، ودساتيره، وقواعده الفقهية والقانونية..قد اخترقتها. كنت أرى زوجتي تعتصر الألم، لكني لم أستطع أن أمد لها يد العون. كل ما أفكر فيه لا يتجاوز مخطوطتي، وعلاقتها برو اية الفرنسي. كنت أبحث عن الحل في أحلامي اللاحقة، فسجنت نفسي في غرفتي ثلاثة أيام، حتى حدث ما حدث، فقتلت زوجتي و ابني.

- ابنك؟ قالت مريم.
- نعم. قتلت ابني قبل زوجتي. وربما زوجتي قبل ابني. من يدري؟
- لا أفهم شيئا من كلامك. فأنت لم تحدثني من قبل عن ولدكما.

- لم أرَهُ. ولم أسمع صوته حتى. كل ما عرفته بعد تشريح الجثة، أنني طعنت ابني وهو ينمو في أحشاء زوجتي.

تنزل دمعتان من عيني مريم، ويصاحبهما نحيب أليم.

- يا لها من لعنة. لماذا يحدث معك كل هذا دون غيرك؟
- لعله ثمنُ الكتابة. فالكتابة نضال، والكاتب يناضل دائما، ولا بد لكل نضال من ثمن قاسٍ يؤديه المناضلون. لابد من خسائروتضحيات جسام.
- لو عاش ابنك لورث القلم. لو عاش لصار كاتبا مشهورا، ولافتخر بأبيه أمام أقران في المدرسة.
- وما الذي بإمكان كاتب أن يورّثه لأبنائه سوى تلك الخريطة الجينية التي تحمل الآلام، والأمراض، وقلة النوم، ككلب يستلذ النوم في أي مكان ويتخذه مضجعا. أحيانا أفكر في الانتقام. فكُل ما حدث لي ولأسرتي البريئة كان بسبب رو اية ذاك الفرنسي. هو، الآن، في فراشه يستمتع مع أنثاه، و أنا، هنا، بدون وجهة، وبدون هوية أعتصر الألم. لكن كيف سأنتقم من شخص بعيد عني بآلاف الكيلومترات؟
- هل حينما طعنك أنت كلّف نفسه عناء قطع تلك المسافة؟
- لم أفهم قصدك؟
- يمكنك اختصار تلك المسافة كما فعل.
- لكن كيف أختصر المسافات، فمجرد التفكير فيها يمزق دواخلي، ويزيدني حقدا على حقد يشل تفكيري وتركيزي؟
- عليك نشر مخطوطتك، ورد الصَّاع صاعين.

- لكن هذا مستحيل. فالناس سيشكون في، وسيتهمونني باللصوصية. وما أنا بلص، وما ينبغي لي.
- الناس! من هؤلاء الناس؟
- القراء..المتلقون..
- القراء؟ وهل تظن الناسَ يقرؤون؟ هل تؤمن ببقاء القراء، اليوم، في عصر غزت فيه اللوحات الإلكترونية العالم، وحلت محل رفوف الكتب؟
- لكنّ الحقيقة مهما طُمست، فإنها تنجلي، والعتمة مهما طالت لا بد أن ينبلج الصبح. فالأمل في القراء كبير. وسرعان ما تنتهي مدة انبهار الناس بالألواح الإلكترونية، ويعودوا لقلب صفحات الكتب.
- مستحيل. ما تقوله محض أمانٍ وأحلام ما أنزل الله بها من سلطان.
- لقد سمعت ذات يوم أن الحافر قد يقع على الحافر، وأن المحدثين قد يسروا على نهج ومسار الأقدمين، وأنهم قد

  يعارضونهم، أو تتلاقى خواطرهم.. الكتب السماوية، مثلا، تتصادى مقاصدها، ومضامينها، وقصصها، وأحكامها..فهل نقول عن هذه الحالة هي الأخرى سرقة؟

عليك أن تتقبل أن تاريخ العلم والمعرفة تاريخ تَلاقُح، وتواشُج، وتصادٍ، وتوالجٍ، وتناسل، وتدافع..يكمل البعض الآخر، والكمال لصاحبه وحده ﷻ، وعظم سلطانه.

إن ما يسرده السُّرَّاد، ويحكيه الحكواتيون، ويصفه الواصفون، وينظمه الشعراء، ويقصه القاصون...لو أفرغناه في إناء واسع، وأزلنا كل فكرة مكررة، ومُمَطّطة، ومعادة، وشارحة، وموسعة، ومعارضة، ومسروقة، ومنتحلة، ومسلوخة..لاستطعنا عَدَّها على رؤوس الأصابع.

طالبان

أمسك يدها الأنثوية، تشابكت أصبعهما، ثم تعانقت أكتافهما، وسارا نحو الحافلة المهترئة. وبيده الأخرى حمل حقبتها، وعلى ظهره حقبته الأخرى. أما هي فتلوح بيدها اليسرى، ناحية أبيها وأمها، معلنة عن الانسحاب من حياة الدوار.

لما أوشكت الحافلة على التوقف، سمع صوت فراملها الصدئة. وقبل أن تتوقف بشكل كلي، ترجل منها الكرسون "القلدة". لم يتأثر وهو يترك الحافلة، ليضع رجليه على الأرض، بحركة الحافلة. قوي البنية كان. ولعل هذا هو السبب الذي يجعل الناس لا يزالون أوفياء لهذه الحافلة الصدئة التي تقيأ فيها الكبار. وبال فيها الصغار. الركاب يأتمنون "القلدة" على أرواحهم لأن لصوص المحطة يهابون بطشه. فإذا جاءهم بطشه لا يستقدمون لحظة ولا يستأخرون.

وضع "القلدة" حقائبهما في مكانهما المخصص، وفي حركة سريعة وخفيفة التقت يد "القلدة" بيد إبراهيم، ودَسّ له خمس دراهم مقابل الحقبتين.

علا هدير المحرك، مجددا، محدثا ضوضاء؛ ليعلن عن انطلاق الرحلة، وعن ما ينتظر هؤلاء المعطوبين من ألم، وعن طول المدة، التي

ستتقوس فيها قنواتهم في مقاعد مصممة بدرجة تسعين درجة في زو اياها، و مصممة بشكل ثابت لا يسمح للجالسين بتمديدها ليتكئوا.

لقد قرأت عن تاريخ دوارنا، قالت مريم بعد الجلوس، إن القصبة التي بجوار منزلنا، والتي صارت سجنا في عصر الكَلاوي، شهدت على أشكال غريبة من التعذيب النفسي والجسدي: كإلقاء السجناء في براميل غارقة. وكان السجانون، إذْ يلقونهم، يلفّون حول أعناقهم حبالا، فيسحبونهم شيئا ما؛ إذا كان السجناء قصيري القامة، حتي يبلغ الماء آذانهم، ويبقون هكذا غارقين حتى آذانهم. ولما يلبثون في الماء مدة طويلة، ويستخرجونهم، يدب كلل في عظامهم، وفي عروقهم، وفي نفوسهم.

تُذكرني الفكرة بما حدث لسيدنا يونس عليه السلام لما لبث في بطن الحوت حتى وَهَن جسده. ومن أنواع التعذيب الأخرى أنهم يجلسونهم لمدة طويلة دون حراك، ودون أن يتركوا لهم فرصة للاتكاء، أو النوم، أو الاستلقاء. فيظلون هكذا حتى يُجنُّوا.

- قال لها إبراهيم ساخرا: "وهل رأيتِ هذا كلّه؟".
- قالت: "قرأته. إنه التاريخ؛ تاريخنا في سنوات الرصاص؛ تاريخنا الأسود، الذي صنعه المستعمر".
- قال: المستعمر؟!
- وحتى لا تظل مريم تجادله في فكرة الاستعمار، ولأن الله يسمع قول المجادلة إذ تشكو عن ماضي الوطن، قالت: "إذا لم أرَه، فها أنا، أنت، أنتم، هم، هن... يعيشونه. ألا ترَى أننا سنظل في هذه الحافلة، وعلى هذا

المقعد دون حراك، ودون استلقاء كمن كُبِّل بالأغلال عشر ساعات أو يزيد كي نبلغ المدينة".

قهقه إبراهيم بصوت صاخب حتى أفاق رضيعا صغيرا من حضن أمه، ثم دخل الرضيع في موجة صراخ ونحيب.

نظر إليه "القلدة" نظرة تأفف وامتعاض. لكن إبراهيم لم يعره اهتماما. ذكرني المشهد بمشهد سيدنا إبراهيم، وهو يسأل لما حطم الأصنام.

تركت مريم الدوار لأول مرة بعد أن حصلت على شهادة الباكالوريا. كان ذلك حلمها، غير أنها، الآن، تحس بجاذبية عجيبة إلى الوراء، إلى الدوار، وإلى لحظات الماضي. هكذا نحن البشر. لا نعجب بالماضي حتى يمر، ولا نتمسك بالوراء حتى نبلغ الأمام.

إبراهيم رفيق مريم وحبيبها. بل اتخذته فارس أحلامها، وكذلك هو. يكبرها بسنة واحدة. درس سنته الأولى بالجامعة، و انتظرها بشوق في المدينة. تخيل وتصور الأحداث التي سيعيشانها، وتخيل كم قبلة مسروقة سيطبعها، في غفلة، على خديها، وكم خاطرة سيسرقها ليتلوها على مسامعها.

مخيلته لا تبرح عن التخمين؛ يظل يفكر فيما سيقتنيانه، وما سيلبسانه، وهما ذاهبان إلى الجامعة، كل يوم. تصور أنه سيتوظف قبل تخرُّجها؛ لأنه سبقها بسنة إلى الجامعة، وسيوفر بعض المال، وسيؤثث شقة صغيرة، وسيعين حبيبته إلى أن تحقق حلمها: أن تصير مدرِّسة.

يظن نفسه، دائما، المنقذ والمخلص من أمواج المدينة، التي تهيج على حين غرة. ينام، ويحلم أنه ذاك الرجل الخارق، الذي يحقق العدالة على هذه الأرض.

هما، الآن، في الحافلة. تشعر مريم بالدوار والغثيان. وها هو ينظر إليها، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا. لا يستطيع إخراجها من دوامة الدوخة. بل لا يستطيع حتى، أن يأمر "القلدة" ليطلب من السائق التوقف للحظة، حتى تستنشق مريم نسمات من الهواء البارد، التي تتسلل على هذه الجبال.

أحس أنه ضعيف. وأن تخميناته، وأزلامه، وآماله، وأحلامه... تذروها الرياح كلما اقتربا من المدينة. فالمدينة وحش لا يرحم، ووحش لا يفلح، ولا ينفع معه تمويه الرجل الخارق.

ماذا سيقدم طالب لطالبة غير الألم و الدموع، أو حب أعمى، أو عشق معتم سرمدي.

ها هي مريم تتذكر نصيحة أمها: "ضعي في فمك بعضا من حبات الأرز. فهو يذهب الدوخة". كانت مريم ستهزئ من أمها وقتها: "أنت أمي قديمة، أنا غاديا للمدينة ماشي للكوزينة "!.

على مضض، تتقبل الأم هاجر استهزاء ابنتها الوحيدة. فهي، في النهاية، تبقى فلذة كبدها. لعل هذه العبارة وحدها هي التي لمت شمل نصف أسر العالم. وأكثر من نصف أسر المغاربة. فالمغاربة شعب يخاف الفضيحة، أو الإفصاح عن عصيان الأولاد. لكن ما إن يكتشف الآخرون ذلك حتى

تسمعهم يدقون الجرس، معلنين عن الفضيحة، وليسوغوا ويحافظوا على ماء الوجه.

إن المغاربة ليسوا سوى ممثلين. لكنهم يتقنون لعب الأدوار. فهم جرّيئون بما يكفي ليترجلوا، ويتخلوا على النص الأصل. مبدعون بالفطرة.

رمت ببعض الحبات في فمها تلوكها. تذهب بها يمنة وتجيء بها يسرة. لكن دون جدوى. فالدوار لا يزال ينخر تركيزها، ورأسها، ها هي تعود مجددا إلى الحوار الدائر بينها وبين أمها علها تظفر بكلمة مفتاح، أو نصيحة أخرى تتبعها على أن تهديها مما علمت رشدا. لكن للأسف. فذاكرتها الضعيفة لا تنفعها في الحالات العادية، فما بالك، والدوخة تسكنها.

ما أشبه هذا الحوار بحوار الخضر مع موسى. فموسى يعلم أن الخضر لن يستطيع معه صبرا، فكيف تصبر مريم الحالمة بالمدينة على خر افات هاجر. "كلشي بالنية "!.

نزلت هذه العبارة، على ذاكرة مريم، كما تأتي المرء الطمأنينة بغثة. ولولا النية، لما بذر الفلاح البذور في أرض قاحلة بلا ماء. لكن نيته تبلغه المطر...

"الزواج بالنية، الدوا بالنية، العلم بالنية...إلا الرجل ما دري فيه النية وخا إحلف ليك فالكعبة". كلام هاجر كان ديو انا تعود إليه كلما فقدت الثقة في شيء.

هاهي تلوك حبات الأرز الرطبة في فمها مغمضة عينيها، مستحضرة النية بجانبها، وسرعان ما تحسنت حالتها، فصارت أفضل.

فتحتْ عينيها، وبجانبها إبراهيم. "كيف لي أن أستحضر النية، و إبراهيم بجانبي، وأمي قالت لي:" ديري النية... إلا الرجل ما ديري فيه النية ...؟!".

فجأة شككت في رجولة إبراهيم. فإبراهيم يستحق النية. وإلا فَلِمَ ائتمنته أمي عليّ؟ كيف لها أن تقول: "لا تثقي في رجل... وهي ممسكة بيده، وتترجاه أن يعتني بي كأخته، وأن يرشدني إلى طالبات من الدوار لأكتري معهن، وأن يعينني، في دروسي ومحاضراتي، حتى أتأقلم مع أجواء المدينة؟

.تساءلت مريم: "هل كانت أمي حمقاء، حتى تأتمنني على طالب لا تجمعه بعائلتنا ولو ذرة خردل من دم؟ كيف تضع ثقتها فيه؟ هل فيه نقص من الرجولة؟

ربما كانت أمي في وضع لا يسمح لها في فقدان النية بطالب من الدوار. فالمدينة شاسعة ومعتمة، ورجالها وحوش مجهولة. أما إبراهيم فرجل معلوم، ووحش من وحوش الدوار. "ألّي نعرفوهْ خير من ألّي ما نعرفوه".

هكذا قدرت مريم الأمر. لكن كلام أمها أيقظها من سبات عميق، وغير لديها كثيرا من المسلمات والحقائق الراسخة.

إننا بحاجة إلى مثل هذه النقاشات، والأفكار التي تدخلنا إلى دوامة من التفكير، حتى ندخل دوامة الدوخة، وحتى نتنين الألوان. لأننا إذ نحب نصاب بعمى الألوان.

أخيرا، وبعد معاناة طويلة مع الدوخة، والألم الناتج عن تقوس القناة، وشم رائحة بول الصغار، بلغنا المدينة. فجرا كان الوقت. كانت،

ونحن على مشارفها، متلألئة بشتى ألوان الضوء: الأصفر، الأحمر، الأبيض، الأزرق. بدت كأنها تنين ينفث النار من فمه، أو كسماء غزتها النجوم والكواكب. وبقدر سعادتي بها، وبخروجي من هدوء الدوار، بقدر خوفي من الضوء؛ من الأضواء المتعددة: أي لون سيكون لوني؟ هل يحق لمن عاش جل حياته بين البراري، وفي العتمة أن ينتظر إلى الضوء وإلى حياة التمدن؟

الفقراء تعذبهم المدينة، والقرويون تسلب هويتهم، ثقافتهم، لغتهم، بساطتهم، عفويتهم. كل الذين يهاجرون إلى المدينة يسلبون؛ فتراهم يقلدون المدينين تقليدا أعمى. لاحظت ذلك كثيرا في أبناء الجنوب، والجنوب الشرقي، الذين يسافرون إلى المدن الكبرى كالدار البيضاء، والرباط، ومراكش... يحاولون التنصل من ثقافتهم، وسرعان ما يفلحون في ذلك. ويزداد الطين بلة، حين يعودون إلى دواويرهم، في المناسبات الخاصة، لابسين لباسا عصريا، وغريبا. يتكلمون بنبرة مختلفة، ويتصرفون كأن لم يلبثوا في دواويرهم ساعة ذات زمن.

يستهزئون، حين يعودون، من كل من لاقوه محافظا على جلباب جده، وعمامته، وخنجره.

- لماذا يتنصل الشباب من هويتهم؟

المغاربة أناس ينسون أصولهم بسرعة. ولقد يفسر ذلك بكون المغرب بلدا مستعمرا؛ فلا تكاد تجد من العامة من بلغ شأوا في المجتمع إلا وينسى منبته. فتراه يتكلم بلغة هجينة، تمزج بين ألفاظ عامية، وفرنسية، إنجليزية، حتى يقر أنه قد تربى، ونشأ نشأة سويّة.

ها هي مريم تستقبلها المدينة مثلما تستقبل الدنيا مولودا جديدا. فلا هو يدري هل يبكي نتيجة الألم، الذي يحس به بفعل شهيقه وزفيره الأول، أم خوفا مما سيلاقيه من معاناة ورزايا كما قال ابن الروم؟

لما تؤذن الدنيا به من صروفها // يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها لأفسح // مما كان فيه وأرغد.

(ابن الرومي: شاعر عباسي، عُرِف بفلسفة التأمل والألم...)

مرت لحظات الخوف والاندهاش. فقد كانت الصدمة قوية، خاصة، بعد خروجهما من المحطة ليستقلا سيارة أجرة كبيرة، فقد كانت تقارن بين علو المنازل الشاهقة، التي تماثل نخيل الواحة، وبين قصر الأكواخ التي يقطنون بها في الدوار. المقارنات لا تسعف المرء حين تكون الهوة بالغة أوجها. لذلك علينا أن نتقبل الحقائق الثابتة أحيانا، وألا نسعى إلى الحماقات التافهة النابعة من سوء التعقل...

من زجاج نافذة، كتب عليها (نافذة الإغاثة)، كانت تطل. وكانت أنفاسها الساخنة، كلما اقتربت من الزجاج، تخلق ضبابا يحجب رؤية المارة الهاربين، والمنازل الهاربة. كل شيء سريع، وغير ثابت في المدينة.

- "لا وجود لحياة الاستقرار في حياة المدينة". قال يوسف.

تساءلت مريم حين انتشلتها كلمات يوسف من بحر صمتها: "لماذا؟ "

يلوح بيده ناحية الرصيف ليقول لها إن تلك البناية لم أخلفها هناك مذ عدت قبل شهرين.

تلتفت مريم تلقاء المكان المشار إليه، لكن دون جدوى؛ دون أن تدرك ذلك. فالمدينة سريعة، وكل شيء فيها هارب.

بعد بضع لفَّات خاطفة وسريعة من السائق، أحسّت مريم، مجددا، بدوار ودوخة شديدين. كانت تعتقد أن هذا الإحساس لا ينتاب المرء إلا حين يسافر قاطعا مسافات طوالا. إلا أن اعتقادها ذهب جفاء. فالدوخة قد تأتينا في أي مكان، وفي أي زمان؛ كالموت. لا يعلمنا بقدومه، ولا يمهلنا فرصة لتجديد الإيمان. يأتي ويصرعنا وهذا كل شيء.

لكن لماذا هذه المقارنات التي لا تجدي نفعا، ونحن نؤمن أن لا قيمة لمقارنات غير عادلة؟!

في كيس بلاستيكي، وهو آخر كيس يحمله يوسف في جيبه من الأكياس الأحد عشر، أدخلت رأسها في انحناء تام، واستسلام متناه؛ تفرغ معدتها من آخر لقمة ظفرت بها في الدوار. لمّا انتهت، عقدت عقدة على طرف الكيس البلاستيكي، حتى لا ينسكب قيؤها. شاحبة الوجه كانت، محمرة الشفاه، متراخية الأطراف، ثم استسلمت بشقها الأيمن على يوسف دون إذن.

ما أصعب التعب وما أَشَقَّه حين يأتينا. نستسلم حتى لو كنا أكابر. بعد اللفات السريعة الخاطفة، أحست بتباطؤ عجلات السيارة، بل شعرت، بين الفينة والأخرى، بفرملتها المفاجئة أو المتكررة.

تفتح عينيها النعساوين لترى حركة بطيئة لأناس كثر تبدو عليهم سيمات الفقر والعيش البسيط. يلفت انتباهها اتساخ الأزقة، وجدران

البيوت، وقصرها، وصيحات الباعة، وسباب وشتائم الشبان، وموسيقى متقطعة...من الزجاج الذي بناحية السائق.

فجأة، تسير السيارة، مسافة طويلة، في الوحل، فيتسخ زجاج النوافذ. يرفع السائق الزجاج الذي بناحيته، ثم يشعل سيجارة رخيصة. تصل رائحتها أنف مريم، ثم تتفاعل معها مباشرة واضعة يدها اليسرى على أنفها ثم تزكم.

وبقدر كرهها لرائحة السجائر، بقدر حبها لرائحة هذه السيجارة الرخيصة، التي ذكرتها برائحة السجائر، التي يدخنها الرجال في قريتها الصغيرة. على الأقل، وجدت في هذه السيجارة قاسما مشتركا بين الهنا والهناك.

يلتفت إليها يوسف قائلا:

- لقد أوشكنا على بلوغ "حي الطلبة".
- لكي نبلغ "حي الطلبة"، علينا، إذن، أن نمر من هذا الحي النتن؟
- يبتسم يوسف قائلا: "بلى. بالحي الشعبي: الدوخة".
- باسمة: "هكذا اسمه إذن". ثم تردف بسمتها: "أخشى أن أصاب بالدوخة كلما بلغته".

يوقف السائق السيارة ناطقا بالعبارة المعهود سماعها، دائما، : "على سلامتكم".

تفهم مريم أنهما بلغا أخيرا، فتفتح الباب الذي بناحيتها. كانت تشعر برغبة في أن تملأ رئتيها بهواء نقي غير هواء الحافلة، ورائحة السيجارة الرخيصة. لكن يد يوسف منعتها، وسحبتها إلى داخل السيارة.

استغربت لردة فعله، لكنها أنصتت لحواره مع السائق:

- "عليك أن توصلنا إلى المنزل. فحملنا ثقيل شيئا ما".

يوهمه السائق بأنه لا يمكن أن يخطو خطوة واحدة بالسيارة. لأن الترخيص يمنحه هذا المسار فقط. وأن لا يزيد شبرا واحدا عن المحطة.

كاد يفشل يوسف في إقناع السائق، لولا تدخل مريم في آخر لحظة لتقول:

- "أرجوك عمي. إن زوجي يشكو من ألم في ساقه اليمنى، وليس بمقدوره المشي حاملا ثقلا. فهلا فعلت هذا المعروف ونزيد على أجرة السيارة؟".

لم يتردد السائق، ولم ينطق ببنت شفة. أدار المحرك، وأقفل إلى البيت مسترشدا بحركات يوسف. في الطريق، شعر بارتياح لأنه ظفر بدراهم زائدة يضعها في جيبه ولن يسلمها لمالك الطاكسي".

وشعرت مريم أنها كسبت أوّل تحدٍ لها، وأوّل مقارنة، وأنها انسلخت من جلدة "حشومة" التي كبلت كيانها، وعقَدَت عقدة بلسانها لسنين.

فيما دخل يوسف في دوامة من التفكير، والشرود، وفوضى الحواس. هل يعقل أن تكون مريم نطقت بهذه الكلمات؟

- "إن زوجي...؟ محال أنها قصدت. لقد استعملتها طعما لتلقي بالسائق في شركها. وإلا فلماذا أسرعت تفتح الباب؟ أي جرأة هذه التي امتلكتها وتملكتها في لمح البصر؟ ترى هل ألقت بكل معاذيرها؟

مطـــر

قام كبور من مقامه، ومسح بيده حبات الرمل الملتصقة بجبينه بحركة تنم عن عياء شديد. فيما صاحب حركة يده سقوط قطرات باردة من المطر. رفع رأسه إلى السماء كأنما يتضرع، ويدعو الله أن ينهمر الماء، فبضع قطرات من الغيث غيركافية لشفاء الجراح التي خلفها الجفاف.

أعجاز نخل خاوية و اقفة؛ لم تثمر منذ زمن بعيد، وقد يئست، ويئس معها الفلاحون. أشجار التفاح و اقفة صرعى بجذوعها الميتة القاسية. الأنعام التي كانت مصدر إزعاج للبعض بأصواتها، ومصدر رزق للآخرين، لم يعد لها وجود في حياة السكان.

الحياة بتفاصيلها الرتيبة، والمملة تميل إلى العصرية. الرجال يحلقون ذقونهم، ويلبسون "البوديات" و"التشورتات"، و"الشورطات". لم يعد هناك من يعيركبير اهتمام للجلباب، والفوقية، والسروال "القندريسي"، والسلهام المراكشي الصوفي. الكل صار ينظر إلى الحداثة بعين الرضا. فقد تكسرت شوكة التقاليد والعادات القديمة، كليا، على حساب شوكة الحداثة، التي تقوت واشتدت بسرعة البرق.

ما أجهل المرء حينما ينسلخ من ماضيه ويتخلى عنه بكل سهولة، وبكل برودة دماء، وما أحقر الحياة حينما تكون مقيدة ببروتوكولات مقيتة ومنظمة تنظيما محكما؛ كأن تعتاد سيدة على نشر الغسيل صباحا، وتقدم

جبنا وكسرة خبز وكوب قهوة في الصباح لزوجها، وتتجه صوب "المارشي" لاقتناء كماليات العيش.

من الصعب أن تبقى الحياة كما هي، لكن من السهل أن نغيرها من السيئ إلى الأسوأ.

أتذكر النسوة ذات زمن، يضعن اللثام على وجوههن، ويسرن في خشية ورهبانية ما ابتدعنها مرضاة لأزواجهن، وطاعة لهم. يخرجن صباحا متجهات نحو الحقول، يجلبن للأنعام القوت، ويعدن في عجلة، كي يعددن الحريرة لأزواجهن، ليشربوها قبل أن ينطلقوا نحو الحقول لحرث الأرض وزرعها وسقيها.. يجلبن، أيضا، الماء من السواقي، ويحملن الجرار على رؤوسهن. كم هي الحياة قاسية على النساء القرويات، ورغم ذلك يشكرن الله، لأنهن تزوجن في البلد، لا خارجه.

أقارن هذه المشاهد التي أسعفتني بها الذاكرة، بنساء العصر. نساء، كل همهن أن يلبسن ويتمتعن بآخر الماركات والموديلات الموجودة في السوق. يضعن أحمر الشفاه، ويعلن الحرب على كل رجال "الدروب". يتبخترن، ويحركن أجسادهن كأنهن الياقوت والمرجان. فبأي امرأة يمكن أن يؤمن بها الرجل اليوم؟

صلاة الاستسقاء

حشا ذاكرتهم ببعض العبارات، و أقنعهم بآيات قرآنية، ثم تَقَدَّمَ الحشدَ نحو المصلى. تبعوا خطواته في صمت رهيب، وبين الفينة والأخرى يسمعون صيحات الأطفال وصرخاتهم. يلتفت بعضهم تلقاء الصغار بنظرات تحمل النذير، ورسالات مضمرة بأن لهم العذاب الأليم بعد صلاة الاستسقاء.

خرجوا وأشعة الشمس تحرق أجسادهم المعطوبة. زرع القحط، والجفاف، الرعب في نفوس الفلاحين الصغار. الكل فاتح فمه ملء شدقيه لعل السماء تجود بغيمة تُذهب الغم ورفيقه الحَزَن عن الوجوه. فكر "أسي عزيز" في حقوله التي تشبه رقعة شطرنج: "سنفقد المحصول إذا لم تجد علينا السماء".

مر "البوهالي"، بمحاذاة الحشد، مستهزئا من خروجهم. إنه رجل علم وورع وتقوى. جن بعدما زوجوا حبيبته لشخص غني خارج القرية، فصار حلمه الوحيد أن تعود يوما ما، ويظفر بلقائها. لكنه، اليوم، بعد أن فقد صوابه يلقب بالبوهالي. ورغم ذلك، فهو من أعقل عقلاء القرية.

قال البوهالي هازئا: "أنتم لا تذكرون الله حتى تعصروا مثلما يعصر أسي عزيز الزيتون ليصير زيتا".

ينظرون إليه نظرات عدائية، لكنه يصر أن يكمل خطابه: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، ثمّ أردَفَ الجملةَ: "قرآن كريم"، ليعزز استشهاده.

وصل الحشد إلى المصلى، تراصوا في صفوف، ورفعت ابتهالات وأدعية، و أقيمت الصلاة، ودخل الجميع في حالة نحيب وبكاء وخشوع مستفيض.

ها هي ذي غيمة، غيمتان، ثلاث...يتقن الإمامُ القراءةَ، ثم يردف كل سورة بأدعية. يردد المصلون "آمين". تنفرج السماء، دون أن تجود بقطرة واحدة. يفقد الجمع الخشوع، والأمل، ويفكر "أسي عزيز" في حقله. ثم تنتشر العدوى بينهم؛ كل يفكر في حقله، وما من أحد يفكر في حقله جاره.

ينطق البوهالي: ألم أقل لكم إن "الإيمان بضع وسبعون شعبة" وليس شعبة واحدة. ثم أردف الكلام: "حديث شريف". ألم أقل لكم إن التردد على المسجد كأنكم تؤدون واجبا لا يكفي كي نعيش. ألم أقل لكم لا تزوجوا حبيبتي لذلك "البر اني"؟

يضيق صدر الفقيه ومن معه، ينهي الصلاة، وينصرف الجمع في صمت وذهول. ينبه "أسي عزيز" بعض أصدقائه أنهم لم يعلنوا في نشرة الطقس أن السماء ستمطر اليوم. فكيف تمطر؟!

سوّغ آخر معلقا: "صدقت، حتى المساجد الأخرى لم تقم فيها صلاة الاستسقاء".

يبتعد الجميع، لكن تصرفات البوهالي تثيرهم من بعيد. يفتح كيسا لا يفارق ظهره، يخرج منه خبزا حافيا جافا، يوزعه في المصلى، يأتي بمياه، ويوزعها في علب يحملها، يراقبه الناس، تخرج النسوة من دورهن، ثم يقتربون نحو المصلى دون أن يربكوه. يرفع يديه إلى السماء، وينادي الطير، والكلاب، والقطط، والضفادع، والجراد، والقمل...

يقيم الصلاة، ويشرع في القراءة. تخرج مخلوقات معروفة وأخرى غريبة لم يرها الناس من قبل: "صلوا يا أبنائي. صلوا ولا تملوا. صلوا وادعوا ربي وربكم. صلوا فإن الله يسمع دعاء كل دابة، صلوا "فما من دابة إلا على الله رزقها". صلوا فإن الذي رزقكم يرزقهم، والذي رزقهم يرزقكم". أنهى البوهالي الصلاة، وسقط المطر.

في الحقول

لم يعد الناس يعيرون كبير اهتمام للحقول بالدوار؛ فحياتهم تغيرت، وتغيرت معها الطباع، والعادات، وأساليب العيش، وحتى العلاقات الإنسانية، وعلاقات الإنسان بالطبيعة بكل ما تحويه تغير.

صار الكل يجري، اليوم، وراء مغريات العيش والملذات. فقد كانت الحقول، فيما مضى، تمثل مصدر القوت، ورمز الخصب، وينبوع الحياة. كانت بمثابة بيوت يأوي إليها السكان. يقدسون أشجار النخيل ويوطدون علاقات التزاوج بينها في كل موسم لقاح.. لكن، اليوم، لم يعد الناس يعبؤون بتلقيح النخيل. كل همهم الجري وراء المال والثروة، وشيء من العيش الكريم.

وبما أن ما تدره الحقول من أرباح، اليوم، قليل، إن وجد، فإنهم يسافرون نحو المدن؛ كي يشتغلوا هناك بأثمان بخسة، وإن بدت لهم في البداية محترمة. إذ سرعان ما يصدمون بو اقع المدن: توفير سومة الكراء، وثمن تذاكر التنقل داخل المدينة، ومصاريف العيش، وما تفرضه المدن من كماليات العيش، وبروتوكولات، واهتمام مفرط بكل خبايا الجسد الزائلة.

يصدمون، ثم يعودن من حيث انطلقوا. يعودون إلى *"درجة الصفر"* كما قال *رولان بارت*. لكنهم حينما يعودون، ينقلون كثيرا من عدوى المدن؛ كالبناء الإسمنتي، ومحاولة جعل الجسد يعيش التفاصيل الرتيبة والمملة، وترك أعمال الحقول، والجلوس على حافة الطرقات، ولعب الورق.

الحقول لم تعد كما كانت في السابق؛ لم تعد تستقبلك برو ائح الأرض الزكية، وعبير الأزهار والورود، ور ائحة البلح والتمر. حتى روث البهائم لن تشم ر ائحته كما عند أجدادنا و آبائنا. الفلاحون الصغار، الذين لا يزالون متشبثين بالأرض، يرمونها بالأسمدة لا بالروث .لا تهمهم جودة المحصول، ولا كونه طازجا طيبا. ما يهمهم هو الربح. يقتلون الأرض، وهم لا يشعرون.

أتذكر كبور، رحمة الله عليه، حينما كنا صغارا، وكنا نتسارع في الخريف لأكل الكروم والجزر في حقله. فنجده يحرق الأرض. نستغرب من هذا الفعل الذي نصفه بالشنيع. وكنا نقول في أنفسنا: "لو علمت منظمات الحفاظ على البيئة، وجمعيات الرفق بالحيوان، أنك تحرق الأرض وتحرق معها الطفيليات، والحشرات وكل خلق من مخلوقات الله تحت هذه الأرض، لحكمت عليك بالإعدام حرقا؛ فعلى هذه الأرض وتحتها كل شيء.." وكنا نسخر من فعله، ونصفه بالحقد.

لكن حينما كبرنا، قرأت في دروس البيولوجيا، أن الأرض المحروقة أكثر إنتاجا وخصوبة. تعجبت كثيرا، وتذكرت كبور! كيف لهذا الذي لم يجلس يوما على طاولة أن يعرف كل هذا؟! لكن الأستاذ أضاف أن الخطورة الحقيقية تكمن في هذه الأسمدة الكيماوية. حينها أدركت أن ما نعيشه من تطور وحداثة واختراعات هو ما يقتلنا ويقتل الحياة على الأرض. إن الإنسان أسوأ مخلوق، وأشده حقدا وخطرا على حياة الآخرين.

أطراس في الذاكرة

بعدما أنهتِ الأسرة الصغيرة تناول وجبة السحور، أذّن المؤذن معلنا الإمساكَ عن شهوتيْ البطنِ والفرْج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. خرج الحاج "حمو" لأداء صلاة الصبح في مسجد القرية. كانت نَسماتُ الصّبح، وهو يتنفس، تنذر الصائمين بيوم آخر حار؛ يوم من أيام العذاب، والتعب، والجوع، والعبادة. يومٌ يُقلع في نهارِه سكارى الحي عن السباب والشتم والقذف. ينتظرون متى يرحل شهر رمضان؛ كي تنطلق ألسنتهم، وتنطق بما يحلو لها.

أخذت قِرْبَة الماء قبل أن يَرفع المؤذن صوته المبحُوحَ؛ هو الآخر يقلع عن التدخين والقمار، ويعتزل النساء في رمضان. شربت آخر القطرات من مياه غير باردة، اقتربت من السيدة الوالدة طامعا في جزء من لحافها أقي به جسدي النحيل من لسعات البعوض، الذي اشتد وعظُم؛ بفعل كثرة ارتشافه وامتصاصه لدمائنا.

استلقيت على ظهري فاتحا عيني تلقاء النجوم في السماء. كانت لامعة ساطعة. تذكرت عائشة ابنة خالتي، التي أحببتها في صباي. أخذني نوم عميق، وحلمت بها فيما بقي من الوقت قبل أن تلدغني أشعة الشمس الجهنمية وأستفيق. تمنيت لو أن الحلم يبقى مسترسلا، فعائشة كانت رائعة؛ بضة الجسد كما عهدتها، مستدقة الأنف، مكورة الوجه، طويلة الشعر، محمرة الشفاه، طويلة الأشفار، لوزية العينين..

عاد الحاج من المسجد، وأنفاسه تكاد تسمع من بعيد. أحس بتعب وعطش شديدين، هكذا خيل إلي. تحاشا النوم قرب السيدة الوالدة، ربما خاف مني، أو أن يفطر قبل سماع أذان صلاة المغرب.

في الماضي، قبل أن أعرف طريقا أخرى، غير طريق المسجد والمدرسة والبيت، كان شهر رمضان أحب الشهور إلي، فقد كنت أتمتع فيه بألذ الأطعمة والمشروبات، بعيدا عن صراخ والدتي وإخوتي الكبار.

كنت بمجرد ما يرفع الآذان، وأشرب الحريرة، أخرج إلى الزنقة الباهتة الأضواء لألتقي بمجموعة من الأصدقاء. يكون كل واحد منا قد أتى بما يبيعه؛ بيض مسلوق، خبز وفلفل أحمر وسردين، مشروبات عصير... نتجه بسلالنا قرب "مسجد الدرب". نصلي مع الجماعة، لكننا نترك أحدنا لحراسة ما حمِّلت به أيدينا. يخطئ الإمام كم مرة، لكن لا أحد يصحح له؛ فكل رجال الدوار أميون. ورغم ذلك فقد كانوا يأخذون زينتهم عند كل مسجد، حتى إذا رأيتهم، أعجبتك أجسادهم وملابسهم.

ذات مرة كان الإمام يقرأ سورة الرحمان فأخطأ في إحدى الآيات، حينها رفعت صوتي من الصف الأخير مصححا للإمام. سمعت حينها حناجر مبحوحة كأنها تقول لي: "لعنةً الله عليك، لقد أهنتَ الإمام". لم أنتظر السلام؛ لأنني إذا كشفت، فإنني سأنال عقابا شديدا من لدن ابن الإمام. لذلك فضلت أن أنصرف عن الصلاة، لأقي عظامي الهشة من شر محقق.

عدت عند سلتي وشرعت أبيع البيض و"الحرور". لم نكن فقراء لكي نبيع هذه الأطعمة، ولكن رغبة شديدة شدتنا لهذه الهواية. ربما لأننا نحلم

أن نصير باعة متجولين. فقد كان أغنى شخص في دوارنا، وفي الدواوير المجاورة من يمتهن التجارة. كنت أحلم أن أملك دكانا وتأتي عندي عائشة وتقول لي: "مد لي كذا وكذا وكذا"، فأمد لها "كذا وكذا وكذا"، ثم أضيف لها، أيضا، كذا؛ فتخجل وتحمر وجنتاها، ثم تنصرف إلى سبيلها مسرعة، دون تعقيب..

تغير الحلم

كانت التجارة حلمي وحلم جل أصدقائي. لم نكن نعرف أحلاما أخرى؛ فأبي قال لي ذات يوم: "الحلم يحتاج إلى إمكانات". لم أفهم قوله حينها. لكن لما كبرت، أدركت أن أحلام أبناء الدوار قاصرة، أو هكذا يجب أن تكون. كان أفضل حلم يحلم به أحدنا هو أن يرى نفسه قد ارتدى حذاءً جلديا، وبذلة أنيقة بربطة عنق، وبجنبه حبيبته التي تمضغ العلكة، وترتدي فستانا مستعملا ومزركشا بالألوان.

نجتمع في المساء، نوقد نارا من أخشاب وأوراق نجمعها هنا وهناك. ننتظر احتراقها لتصير جمرات تتوهج، وقبل أن تصير كذلك، يخنقنا دخان الأوراق، تنتفخ أعيننا الصغيرة، ثم تدمع. في الحقيقة؛ نحب الدموع. نستمتع بها وهي تندفع من عيوننا ثم تتكور كبلورات على خدودنا. لا يمر يوم لا نبكي فيه؛ من ضرب المعلم، أو الآباء، أو ألم الجوع...

لكن، سرعان ما ننسى الألم. نبكي ونذرف الدمع وننسى الألم، لكن لا يفارقنا الأمل. نطفئ النار، ويزول دخانها بعد هبوب الرياح. نستمتع بالحرارة المنبعثة من الجمرات. يشرع إدريس في سرد حلمه؛ يتحدث عن فتاته، الملامح نفسها والصفات ذاتها. لا شيء تغير، ولن يتغير. في الحقيقة، صديقي حفظ الحلم عن ظهر قلب، وصار يعيش معه في الواقع؛ لا يميز بين عالمي الحلم والواقع؛ اختلطت عليه العوالم. فكلما حدثته بسوء عن فتاته، نهرك وربما

ضربك، وفي أحسن الحالات يمسك لسانه، ويصوم عن الكلام ويقول: "لن أكلم اليوم إنسيا".

الفتاة التي يصفها تكونُ زميلتَه في القسم. ابنة المْعلم "أسي محمد" " مول العصا ديال التيو دلبوطا". كان إدريس كسولا وبليدا. لا يتقن الحساب والإعراب. وكان "سي محمد" يتلذذ في حصتي الإعراب والحساب. كان يقول لنا: "أنتم لا تجيدون الإعراب ولا الحساب. أنتم مثل الحيوانات"!.

يندفع إدريس، ويداه ترتجفان كأنما صعقه التيار الكهربائي، قائلا:

- وفي أي شيء سيفيدنا الحساب؟

يصمت المعلم لبرهة، ثم يقول: "أَوَلَسْتَ تريد أن تصير تاجرا؟"

يهتز المسكين، ويهز رأسه بالإيجاب. أقول أنا في صمتي: "على الأقل إن صار تاجرا، فسيبيع لابنتك هاته التي لا تشعر بما نشعر به من ألم، وربما يقول لها بضع كلمات بعد أن يبيع لها العلكة، وتهرب مسرعة تلقاء بيتك أيها المعلم".

كان "أسي محمد" يقول لنا: "الإعراب مهم وضروري في الحياة؛ فبه تفهمون القرآن وتفسرونه. اللغة العربية لغة الجنة، وبها تؤدون شعائر الدين، وتتواصلون مع الله...!".

لكن الله "علم آدم الأسماء كلها". كيف لا يتواصل معنا بلغات أخرى غير العربية! هذا الذي يقوله "أسي محمد" غير معقول!

نطق إدريس البليد: "الإعراب لن يجعلني أتواصل مع ابنتك. ها نحن نتحدث العربية، لكننا معذبون في الدوار. إن كانت العربية لغة أهل الجنة، فعليها أن تعرف أننا أول من يتحدث بها في الأرض، علّنا نصير من أهل الجنة".

يصمت إدريس لحظة ثم يسأل المعلم: "هل سنبكي، أيضا، في الجنة؟ أنا أريد أن أتعلم الحساب جيدا و أفتح دكانا، وتأتي عندي الجميلات، و أبيع لهن كذا وكذا وكذا.. هذه أمنيتي في الأرض. أما الإعراب، فأماني السماء..".

المعلم

عاش الحداثة المظهرية بكل ألوانها الحربائية؛ بدءا من قَصَّات الشعر، مرورا بسراويل ضيقة وغريبة إلى لغة "لعياقة"!

درَس الأدب الفرنسي، اجتاز مباراةً لولوج مهنة التدريس، وَوُفِّق فيها. أنهى سنته التكوينية بمدرسة الأساتذة العليا بالرباط، ثم عُين بمنطقة جبلية بزاكورة. لم تكن بالمنطقة أبسط شروط العيش؛ لا إنارة، ولا شبكة تغطية، ولا دكاكين، ولا حلاق، ولا حماما، ولا صنبور ماء واحد...لا شيء سوى مسجد بسيط مبني بالطين، ومطلي بالجِبس، عششت في سقفه العناكب والسحالي. وكان ثمة عين ماء بعيدة، مما يلزمه بالذهاب إليها مرتين في اليوم. مرة حين يستيقظ في تمام العاشرة، وأخرى في المساء. يخرج بسروال قصير كـ"شورط". يحمل قارورتين فارغتين، ويستمع للموسيقى. يحسب نفسه، حين يضع سماعة الموسيقى في أذنه، أنه ما يزال في مدينة الأضواء. يخترق الأزقة الضيقة كالسهم، يلتقي ببعض الفتيات والنسوة، بعضهن يهرب، وفي أحسن الأحوال يجلسن في أمكنتهن، أو يضعن على وجوههن اللثام إلى أن يمر.

لا يفهم شيئا مما يحدث له! يستمر دون أن يدرك السبب. يمر برجال كهول لا شغل لهم سوى النميمة وتقصي أخبار المتزوجات والمتزوجين،

والمطلقات والمطلقين، والمسافرات والمسافرين، ومن صلى الفجر ومن كان على جنابة.

أتذكر ذات يوم، بعد أن صرت ملتزما وأصبحت أصلي، وقد تزوجت حينها، أنني غبت عن صلاة الفجر. وفي صلاة الظهر، بعد أن سلم الإمام، زحف "الحاج باسو" من مكانه نحوي قائلا: "لا شك أنك قضيتَ ليلة ماتعة مع زوجتك؛ فأنتما ما تزالان صغيرين، لذلك لم تشرفنا في المسجد في صلاة الفجر..

صمتت لبرهة، وقلت له: "بل كنت مريضا طول الليل. فأعين الحسّاد لا تترك لك المجال للاستمتاع".

أجاب "الحاج باسو" مستغربا: "وهل تؤدي عيون الحُسّاد؟" فأجبته: "أَولَست تحس بها حين تفوتك فريضة من فرائض الصلاة؟".

خرجت من المسجد نادما على توبتي. لا شك أن هناك خطأ في مفهوم المسلم! أوليس المسلم من سلم الناس من لسانه قبل أي شيء..؟

"الحاج باسو" وأصحابه لا شغل لهم. في الحقيقة، هم أهل المساجد. ولولاهم لغلِّقت أبواب كثير منها، هم من يسجِّل الحضور الدنيوي للعباد. لكن، ماذا يستفيدون من هذا كله؟ من يعوضهم على جهودهم؟

ربما خصص الرب للنمامين جائزة عظيمة غير التي نعرفها! إذ لا يعقل أن يكون الجزاءُ النارَ، ومحو الحسنات!

يصل المعلم إلى عين الماء، يجد فتيات طائشات من الدوار، ينظرن إليه بعد أن تركن له المجال ليملأ قاروراته. تذكر موسى والفتاتين اللتين استسقى لهما. لا مجال للمقارنة!

انتظر أن تعود إحداهن بعد أن غمز لهن لتجزيه أجر ما غمز. لكن دون جدوى. ولما قام من مقامه ليعود إلى أدراجه، سمع أصواتا تتعالى هنا وهناك: سنقتله، لن نرحمه، "كيخرج بالشورط"...

اِلتف حول صاحبِنا سبعة شبان ذوو بنية عظيمة. لا شك أن طعامهم التمرُ والماء! من هوْلِ الصّدمة، المفاجأةِ لم يعرف ماذا يقول! تلعثم كم مرة وجف ريق حلقه. عرق جبينه، أحس ببؤبؤي عينيه يغرقان دمعا. لم يتمالك نفسه، ألقى بالقارورتين، وانطلق بينهم كالسهم فارا يخترقهم. لم يستطع أحد أن يمسك به. شيء ما ساعده، وبقوة، على الفرار. يندفع جسده بقوة إلى الأمام كعداء كيني. وصل إلى بيته، أدخل المفتاح في القفل، عالَجَهُ وولج. وضع رأسه على الوسادة ثم استفاق من حلمه المرعب.

المنسي

"المنسيون إخوة العتمة و أبناؤها البررة"

أدرك أيوب أن الوزارة لم تعينه معلمًا هناك و إنما شيئا آخر. ربما جنديا في الحدود. فالمعلمون لا يهربون، ولا يفرون. لا يصرخون، ولا يندمون بخروجهم بـ"الشورط". قام من مقامه، وأخذ حمامه البارد؛ لأن إمكانات تدفئته غير واردة، ثم شرب كأس شاي.

كم هو مشتاق لشرب فنجان قهوة تعصرها بدقة وتفنن نادلته المفضلة صفية. كم هو مشتاق أن يفطر بقطعة من الخبز محشوة بالجبن أو العسل. لكن ذلك لن يحلم به في قرية نائية بزاكورة. عليه أن يشرب الشاي ويعتاد عليه؛ فهو المشروب الوحيد الذي بإمكانه اقتناؤه. اشتاق لعصير من الموز أو التفاح أو الكرز. يا لها من حياة قاسية! كأس شاي وقطعة خبز حافٍ هو إفطار الإنسان الزاكوري. لكن الله أنعم عليهم بواحة من النخيل. ولولاها لقامت مظاهرات و انتفاضات. لكن الحق يقال: "حمدا لله الذي أمن هذا البلد وجعله مطمئنا سخاء رخاء". هكذا يقول الإمام في خطبه المنبرية، وهكذا يردد الناس.

تناول صاحبنا إفطاره، وتوجه تلقاء المدرسة. بعيدة كانت. عليه أن يقطع عشرات الكيلومترات ليصل إليها. وهذه المسافة كلها قفار. لا نبات ينمو فيها، ولا حيوان فيها يتنفس. كثبان وكثبان من الرمل. وفي أحسن الأحوال يمر ببعض الكيلومترات من الحجارة. يستنفد، وهو في الطريق، كمية

الماء التي جلبها. يحاول أن يكون مقتصدا؛ لأن "المبدرين كانوا إخوان الشياطين"، لكن الطقس لا يترك له دقيقة دون أن يشرب. تبدأ معاناته مع الماء. عليه قطع عشرين كيلومترا المتبقية بدون مياه. يقاوم ويقاوم حتى يصل.

يدخل إلى القسم بعد أن يأخذ من تلميذه الذي يقطع المسافة ذاتها قنينة الماء التي اصطحبها. هو لا يستأذنه في ذلك، لكنه يزيلها من يده وبشدة. يشرب الكمية كلها، يعرق جبينه وجسده، تظهر شلالات من العرق تحت إبطيه. يستغرب التلاميذ من حالته! يأمرهم بوضع كتاب التربية الفنية فوق الطاولات، ويشير إليهم بإتمام الرسم الموجود في الصفحة السابعة. يجلس على مكتبه، رجلاه متورمتان، يحس بحبات الرمل داخل عينيه وحلقه وأذنيه وأنفه. يحرك خصلات شعره، يتطاير منها الرمل. يصمت طويلا ويتأمل التلاميذ.

- "يا لقدرتهم التحملية! ما أقدرهم على حمل السلاح والدفاع عن الوطن". قالت نفسه المطمئنة.

عقبت عليها نفسه المطمئنة:

- "وأي وطن سيدافعون عنه؟ هل هو وطنهم الذي يجعلهم يأكلون حبات الرمل، أم الوطن الذي يوشح غيرهم بالأوسمة ؟

تتدخل النفس اللوامة فتقاطعهما: "أنتم تلومون الوطن والوطنيين دائما. ما أكثر نقدكم، وما أقل نقودكم. لا تقدمون أي شيء لهذا الوطن،

ورغم ذلك تسعون إلى كسر سيقانه كلما حاول الوقوف، وتقصون أجنحته كلما حاول الطيران، ويمنعون عنه الماء كلما حاول الغوص. أنتم أيها المنتقدون أشد أعداء الوطن".

زواج

جالت في خاطري فكرة الزواج. فقد تعبت من القيام بأعمال النساء داخل البيت بعد عودتي من العمل؛ أكنس الأرض، أعجن الطحين، وأخبز الخبز، وأطهو الطعام، وأصبن ملابسي وأنشرها في سطح البيت، ثم أقوم بكيها في المساء. كنت أقوم بكل هذه الأشغال المنزلية. وحين قررت الزواج، فكرت فيك وحدك.

أعلم أنك ما تزالين صغيرة، وأنك لم تخلقي لتكوني محاطة بجدران الغرف، لكني أومن أنك كبيرة وناضجة بما يكفي. فقد أدركت أن لك عقلا وأفكارا ليست للمتزوجات ولا للأمهات. أدركت، وبسرعة، أنك قادرة على تحمل مسؤولية البيت.

وحينما أفقت من حلمي هذا بصدمة صعوبة عيشك معي في الدوار أدركت أنك امرأة لن تتحمل قسوة الحياة البدوية. فطباع الناس، هنا، صعبة. حتى الرجال المسنون، وذوو اللحى، والمتدينون يسبون الحيوانات البريئة ويقذفونهما بأشد السباب والشتائم! "أسي عزيز" كان واحدا منهم؛ حفظ القرآن صغيرا، وكان يسافر إلى المدن الكبرى ليشتغل بها. ولما تزوج بقي في الدوار يحرث الحقل ويزرعه، ويحصده، ثم يدرسه. يتبع المواسم الفلاحية في دورتها، والفصول في تقلبها، وزوجته في دورتها الشهرية. حفظ حالتها من خلال تتبعه لحالة الدورة الزراعية.

التقيت به ذات موسم حصاد في الحقول، كان قد حمَّلَ الحمارَ ما لا يطيقُ من الزرع، ونزَل على مؤخرته بالسوط. لم يكتفي بالسوط، وإنما تعالت صرخاته ووعيده: "سيرألحماربن لحمار، أشاا، زيد، أراا..."!

كان رجلا قصير القامة، مكور الوجه، أسمر اللون، طويل اللحية، خشن الصوت، أفطس الأنف.. منظره يشبه رجال الدين الكاثوليك: طاقية فوق رأسه، وجلباب فضفاض تحركه الريح.

كتبت رسالتي لفاطمة:

عزيزتي فاطمة:

"تدركين جيدا أنني متعلق بك تعلق الغواص بالدّرّ، ولكنك لن تستطيعي العيش معي في دوارنا هذا".

لما أحل شهر رمضان، تاب الدوار. الكل يصلي صلاة التراويح؛ صغارا وكبارا، نساء ورجالا.. حتى الأعيان ورئيس الجماعة ومقدم الدواروكل الذين لم يصلوا يوما، ويحتقرون أهل الدوار، ويستولون على خيراته، يتوبون. أراقبهم من الصف الأخير. في الحقيقة، لا تهمني الصلاة بقدرما يهمني أن ألمح الكذب والباطل والبهتان والنفاق. الذين يسبون إخوانهم في الصباح، يبكون في الليل خلف الإمام. والإمام لا حول له ولا قوة. لا يستطيع أن يقول لهم شيئا. فإن فكرفي نصحهم وطردهم من بيت الله، سيجد نفسه خارج المسجد، ويعود إلى حال سبيله. سيبدلونه كما يبدل أسي عزيز حميره، وسيكون أضحوكة الجميع، وحديث مجالس النميمة. عزيزتي فاطمة. أحببت أن أخبرك بكل شيء حتى لا تصدمي بواقع الدوار، وحتى لا تسبي الحمير.

مجازفة

أدركت فاطمة مضمون رسالتي جيدا. لكنها أصرت على المجازفة والزواج بي. قالت لي بعد الزواج، وبعد أن سألتها:

- "ما الذي جعلك تقبلين"؟

- أجابت: لقد قلت لي ذات يوم: "إن الإنسان عليه يغامر في حياته ولو مرة واحدة حتى يدرك قيمة الأشياء، وحتى يغترف من علم الحياة ودروسها".

في الحقيقة، كلامي كان عابرا. ولم أتذكر حتى متى قلته. فمعظم المدرسين يقولون ما لا يفعلون، بل يقولون أشياء لم يفعلوها في حياتهم. ولما فاتهم الركب، فكروا في دفع طلابهم لفعل ما لم يفعلوا. وأحيانا يملؤون وقت الفراغ بنصائح وتوجيهات ما أنزل الله بها من سلطان.

مر على زواجنا أسبوع. في القرية، لا يقضي العروسان شهر العسل في مكان آخر. بل إن الشهر العسلي محصور في أسبوع. بعدها يخرج العروسان، بعد طقوس غريبة، إلى الحقول لأخذ جولة قصيرة. يلتقطون فيها، بمعية الأسرة، صورا تذكارية. يذهبون، في أحسن الأحوال، بأباريق القهوة الممزوجة بالحليب، أو بالتمر واللبن. في تلك الجولة القصيرة، فقط، بإمكان أصابع العروسين أن تتشابك وتتعانق أكفهما. فبعد ذلك لن يحدث ذلك أمام الملأ ولو في عالم الحلم. يُظهر العريسُ جاهه والحقول التي تمتلكها الأسرة.

في الحقيقة، هو يعطي لزوجته الخريطة الجغرافية التي يجب عليها احترامها أثناء خروجها، وعليها ألا تُخرجَ رِجليها عن المسارات التي حددها

سطرها. يريها الحقول، أيضا، لأن بقية حياتها ستكون في هذه الحفر الصغيرة التي تشبه رقعة الشطرنج؛ تأتي بالكلأ للبهائم، وتسقي الحرث، وتحصد المحاصيل.

هي تعلم أن حياة الدوار قاسية بما يكفي لتموت، فكل شيء فيها بقدر. لكنها تفضل أن يقال عنها: "إنها متزوجة، وأمٌ لكذا وكذا من الأطفال"، على أن يقال عنها: "إنها عانس لم تعرف رجلا قط".

خرجتُ مع فاطمة. كل شيء في أعيننا أخضر وينبض بالحياة. لم نشأ أن ينتهي الأسبوع. أعجبها الدوارُ و أناسُه؛ خاصة التقاليد والعادات، وعفوية الناس. وسرعان ما أحبها الجميع. كانت امرأة بشوشة؛ تضحك في وجه الجميع ولا تبالي. وما إن أدخل عليها إلا وتنضبط انضباطا عجيبا. لا تستطيع أن تحدق في كثيرا. تفضل أن تقف وتسألني عن طلباتي. تحمر وجنتاها خجلا، وتنحني برأسها إلى الأرض. إنها تحبني وهذا يكفي كي نعيش في عتمة الدوار.

تذكرت يوم قالت لي: "أحبك".

خفت كثيرا ثم قلت: "لكني لا أقدر أن أعيش حياة الترف. الجهد يسير، والجيب فارغ، وجمالك شاسع وواسع".

قالت: "لا شروط لدي سوى أن يجمعنا سقف واحد، ويكون شعارنا خبز وشاي".

وكنت كلما أحسست بالهوان أستعير من مخيلتي هذا الحوار الجريء، فأشعر أني إنسان بقوة ألف حصان.

التقينا "أسي عزيز" في الحقول. حمل الحمار، كالعادة، ما لا طاقة له به، وأردفه بالكلام النابي. تقف فاطمة مذهولة، ويُخَيَّلُ إلي أنها تسب أسي عزيز في صمتها. صمتنا معا لبرهة، لم نستفق إلا بصوت الأطفال وهم يقولون: "هذا مكان جميل. لنلتقط صورة". سمعت فاطمة تقول: "ربنا لا تحملنا ما لا طاقة لنا به".

قالت نفسي المطمئنة: "أعلم أن فاطمة ستتأقلم مع ثقافة الدوار. فكثيرات هن اللاتي جئن من المدينة، محملات بثقافة التفتح والتحرر والرفق بالحيوان، لكن سرعان ما خمد كل شيء، وعُوض بثقافة الحشمة والصمت، وطأطأة الرأس، والقسوة على الحيوان، ثم أحببن عتمة الدوار".

قال نسوة

"هذا العالم صنعته تاء التأنيث المتحركة"

عدت وفاطمة إلى البيت بعد جولة في الحقول. كان الفصل ربيعيا. قطفنا بعض الأزهار والورود، وجئنا ببعض الطفيليات النامية في الزرع للبهائم. حملتها فاطمة على رأسها، كما تفعل النسوة، بعد أن حزمتها. وحملت الورود بين يدي. كنا نبدو، في أعين الأهالي، غرباء ومختلفين كأننا نزلنا من كوكب آخر. فهم لا يؤمنون بتقاسم الذكر المهام مع الأنثى. كما لا يعتبرون ذكرا من يعين زوجته في الحقول، ويتقاسم معها الحديث في الطريق. هم لا يميزون، أصلا، بين الرجولة والذكورة. هم يعرفون أن سلطة الذكر لا تعلو عليها الأنوثة.

بعدما وضعت فاطمة حملها، وأعطينا منه للبهائم كي تتقوت، أعددنا براد شاي بالنعناع. تحب فاطمة النعناع البلدي، وتتمنى أن نزرعه، وتعتني به كل صباح.

تطرق جارتنا السعدية الباب بقوة. "داق- داق- داق.. "صوت الباب حاد، وهو يقرع. يخترق طبلة الأذن بعنف. نساء الدوار لا ثقافة لهن في طرق الأبواب، ولا في ولوجها. فإذا وجدن الباب مُشرعا يدخلن ويصرخن باسم صاحبة البيت حتى يبلغن غرفة النوم. هن يؤمنن بالنية، وبعفوية العلاقات.

دخلت السعدية، وجدتنا نشاهد التلفاز. جلست بعد أن سلمت، وشرعت تتحدث بصوت مرتفع جدا. صوتها واضح، لكن كلامها مبهم. لا

فائدة من ور ائه. كلام كله في النميمة وأكل لحوم الناس بالباطل. ونحن لا حول ولا قوة لنا. نتقبل أفكارها على مضض.

تنتقل بالحوار إلى رقعة أخرى فتتحدث عن زوجها وكل تغيير في بيتها. في ما نحن لا تتجاوز اهتماماتنا الفراش. في كل مرة تتحدث فيها، تستحضر بركة الأولياء، وبعض الحكايات والقصص التي تتناص مع ما قر أناه في "كتاب ألف ليلة وليلة". نساء الدوار يتألمن في صمت. يمنين أنفسهن، طيلة السنة، بعودة أزواجهن من المدن الكبرى. لكن الحلم لا يتحقق إلا في مناسبات خاصة مثل الأعياد.

كان عيد الأضحى مناسبة لعودة جل الرجال إلى أعشاشهم بعد تعب وكد وعمل مضن. تتزين النسوة بالحناء والكحل، قبل حلول العيد بحوالي أسبوع، كالعر ائس. لا تفارق الابتسامة وجوههن التي تجهمت لمدة طويلة. يضعن مراهم لتبيض بشرتهن التي صارت سمراء بفعل لفحات الشمس.

يقللن من عدد مرات ترددهن على الحقول، فيكتفين بمرة واحدة في اليوم حتى يحافظن على جمالهن وطراوة بشرتهن. ورغم ذلك، فالرجال رأوا نساء المدن. الجمال الجسدي على الأقل. أما إذا ما قورن بين المجهود المبذول، فالمقارنة لا تسعف.

تقف جارتنا السعدية بخفة بعد أن سمعت طفلا ينبئها بعودة زوجها من السفر. من هول الفرحة، تخرج دون أن تودعنا. تستقبله مطأطئة الرأس دون عناق، لأن ذلك مستحيل حدوثه في الضوء، فإنه يرجا إلى العتمة.

كل نساء الدوار يستحين من أزواجهن، لا يتبادلون العشق أمام العامة كما في المدن، ولا تتشابك أيديهم أمام الملأ خشية افتضاح! وأي فضيحة هاته التي قد تنشأ بين زوجين في الحلال..؟ كل الرجال الذين أعرفهم لا يفعلون ذلك مع زوجاتهن. تذكرت "رقوش" التي لم تسر يوما بمحاذاة زوجها جنبا إلى جنب في الطريق. كانت تعتبر ذلك عيبا. إن المرأة، وبنت الأصل، في نظرها، يجب أن تسير خلف زوجها. فلا هي تتقدمه، فتتولى أمره، ولا هي تسير بجانبه فتفضحه وتتساوى معه! بل "بنت الأصل"؛ هي التي تسير خلفه، دون التوغل في الابتعاد أو الاقتراب حد الاحتراق. تسمع، وتطيع، وتستجيب.. دون اعتراض، أو نقاش، أو جدال...

لا تتطلب النسوة زينة كثيرة، ولا إكسسوارات، ولا أموالا طائلة كي يظهرن جميلات. كل ما يصرفه الرجال أمور بخسة الثمن؛ كعطر بـ مائتين وستون ريالا، وقطعة خشب "مسواك" محل أحمر الشفاه، وحذاء مستعمل بثلاثمائة ريال. متطلبات قليلة وبخسة. وكلما أحضر لها الرجل هذه الأشياء ظنت، بلادة منها، أنه وفى وأدى ما عليه وزيادة. ثم إن هذه الزينة المتواضعة لا تضعها النساء إلا في بعض المناسبات الوطنية، والدينية، والأعراس...

شربت وفاطمة كأسنا الثانية شايا، وشرعنا نناقش قصائد النثر الأخيرة للشاعر الراحل محمود درويش. لكن نفسي الأمارة بالسوء قالت: "لماذا تاء التأنيث المتحركة تعاني، وليس تاء التأنيث الساكنة العاطلة عن عملها!".

نسوة على شفا جرف

الأكواخ الطينية نائمة باكرا. لا إنارة مشتغلة ولا نار مشتعلة. كل شيء يبدو هادئا، والظلام يعم المكان. وحده صوتُ خرير مياه نهر درعة الذي يَفلق الدوار نصفين يسمع من بعيد. حتى فَصْلُ النهرِ للدوارِ ليس عادلا؛ فالشق الأول ضيق شيئا ما، ويضم أكواخ الناس الطينية والإسمنتية، كما يضم مساحة منيفة من الواحة. في ما يضم الشق الثاني مساحة ضيقة ومقفرة تحدها الجبال والهضاب الرملية الزاحفة.

نخل الواحة متماسك أكثر من الناس. قريبا من بعضه كان. يعانق النخل، ربما، بعضه البعض في الليل! فقد تنتقل إليه عدوى الحياء و"حشومة"، كما بين الأزواج في الدوار. فقد كان الحاج قدور يحكي لأحفاده أن النخل يعانق بعضه البعض في الليل، وقد أقسم كم بمرة بأعظم الأيمان وأغلظها، وبعيونه التي سيأكلها الدود أنه كان يسقي حقله ذات ليلة مقمرة باردة، فسمع أصواتا غريبة تشبه الأنين والنحيب تصدر من كومة نخلات، ثم إنه رأى نخلة عانقت نخلة أخرى ثم بَكَت. لكن الناس لم يصدقوا تلك الحكاية. خاصة حينما استيقظوا في الصباح، فرأوا النخل الذي حدثهم عنه الحاج قدور قد سقط على رأسه. لقد كفر الناس في درعة بالحكاية والأحجية، واتجهوا إلى عوالم الموضة، والزينة، والتكنولوجيا؛ فغاصوا في عوالم افتراضية، وحَلمُوا كثيرا حتى صارت الحكايات الشعبية والقصص في خبر كان.

هل كان الحاج قدور يكذب، أم كان يتوهم، أم أن الحكاية لم تعد تؤثر في الناس؟

سأصدق حكاية الحاج قدور. فحياة النخل في الواحة كحياة الناس؛ فهناك النخلات الجميلات والقبيحات، الطويلات والقصيرات، الولودات والعاقر، الثيب والعذارى، النحيفات والسمينات، الشامخات والمنحنيات، ولا أستبعد أن تكون فيها راهبات وفاسقات.. كل هذا وغيره يبين تعلق النخل بالناس وحبه، والرغبة في تقليده، وبهذا يكون النخل ابن بيئته..لكن ما لا يختلف فيه أهالي الدوار عن النخل هو الصبر وعدم الاستسلام أمام قسوة الظروف.

تبدو الجهة الأخرى، التي حدثتكم عنها، للوادي شبه صحراء؛ كثبان من الرمال، ومرتفعات جبلية.. لا يعير الناس، في ما مضى، أدنى اهتمام لهذه الأرض الفلاة. أما اليوم، وبفعل الجشع، والرغبة في الغنى وكسب المال، فقد صارت تساوي الذهب. صار الناس يزرعون هذه الأرض بطيخا أحمر.

يعم صوت مضخات المياه المكان، وتسافر الدقات (داق داق داق) في الجو معلنة عن خطر يهدد الفرشة المائية الباطنية، والأهالي، من ثم، بالرحيل. يخاف الحمام، حسون، الكروان، والهدهد، والفَراشة، فيعلنون الهجرة في تجاه المجهول. ما أقبح الإنسان. يقتل بكل تلذذ وتفنن ليملأ جيوبه.

يحدث كل هذا، والنساء يتألمن في صمت، ويتمتعن بأحدية وملابس مستعملة. بعض الرجال، أيضا، لا حول لهم ولا قوة. يفنون شبابهم في الشركات، وفي الأعمال الشاقة في المدن، ثم يعودوا ليموتوا قرب النهر، أو في

أكواخهم الطينية بنزلة برد حادة، أو لسعة عقرب سام، أو لدغة أفعى، أو بضيق في التنفس. أما الذين فضلوا البقاء قرب زوجاتهم، فيفنون شبابهم بين الحقول الصغيرة التي تشبه رقعة الشطرنج. يزرعون حفرا من الحبق والنعناع، والشويلاء، والبصل، والكروم، والبرسم، ويجنون ثمارا جافة، وحبات من اللوز معدودات، ويركلون حميرهم وقت الحصاد، ولا يتوانون عن النزاعات العائلية عن هذه الحفر وقت الإرث. يموت المالك، ويهلك مرتين؛ يهلك؛ لأنه رُزِئَ في شبابه الذي أفناه في حرث وسقي أرض يباب، ويهلك ثانية؛ لأن فروعه يُلحِقونه، في قبره، أشد السّباب والشتائم؛ لأنه خلَّف أرضا متنازعا حولها.

كثيرا ما سقطت أجساد، ورفعت أرواح في الميراث. يهلك الهالك، ويتقاتل الفروع لأجل شبر أو شبرين من أرض بيداء.

- "لمَ لمْ يفكر هؤلاء، يوما، أن يطالبوا بما هو أحسن؟". قالت النفس الأمارة بالسوء.

ماذا لو..؟

سألتني نفسي اللوامة: "لماذا اخترت عالم القرية، ولماذا ترفض المدينة؟" أجابتها نفسي المطمئنة: "لو تزوجت بفاطمة وبقينا في المدينة، فستضطر لغسل الملابس، وكيها، وطيها كل يوم، ثم ترتيها بكل تفنن واجتهاد بدولاب سخيف. ولأنه اختراع ماكر، ستفقد زوجتي أعصابها كل يوم. فهو اختراع ضمن سلسلة اختراعات تجعل للعبث قيمة. ستشيخ بسرعة البرق، وستحترق كشمعة.

"السداري"، مثلا، سيجعل منها امرأة مقوسة الظهر، مترهلة، مشحمة، مرتخية، بيضاء بفعل بقائها في الظل لمدة طويلة. آلة التصبين ستجمد حركة يدها وأصابعها. سيظلان جامدين بدون حركة، ولن تتمكن من إتقان فن الملاعبة والمداعبة. الآلة ستحل محلها، وحينها لن أحتاج مساعدة منها في تنظيف بذلتي الرسمية، سأرميها في الآلة، وسأصب عليها كمية من الماء والصابون ثم تفي بالغرض وزيادة.

لن يكون حينها لفاطمة دور سوى تأدية دور شهرزاد. وربما أغيرها بدمية صينية من "السيليكون". وحينها سأطردها- أو تطرد نفسها، من حياتي- حين تجدني بغتة في غرفة النوم أداعب دمية شقراء جميلة تشبه الفينزويلات، أوالنرويجيات، أو البرازيليات، أو السويديات. وحينما أشتاق لخبز الدار؛ ذي النكهة المختلفة، أكلف الفرن الكهربائي، وحينها لن أشتاق لخبز فاطمة.

سأجد الماء في الثلاجة باردا، وتوقظني ساعة الحائط في الصباح

لأصلي الفجر، ولأذهب إلى العمل، وتغط فاطمة في سباتها. وحينما أعود إلى البيت، أدخل إلى الحمام، أفتح صنبورا واحدا فيصلني ماء دافئ. لن أحتاج إلى زوجتي كي تحطب وتسخن الماء..

كل هذا التمدن والتطور في ثقافة العيش، سيجعل مساحة الانتظار دون جدوى، ويجعل الألفة ضامرة، ويقلص، أيضا، طولها بضرورة الاعتناء، والترتيب، والتنظيف، والتفكير في التغيير وما يتطلبه ذلك من وقت وجهد.

ستجد فاطمة نفسها، دائما، تجلس في محل "لماكدونالد" لتتعشى. وعوض أن تهتم بشؤون البيت والطبخ، ستجد نفسها إلى جانب رجال ونساء يأكلون في محلات تطبخ الفاصوليا والعدس وأمعاء الذبائح، ثم تشرب قنينة مشروب غازي. ربما تصاب بسرطان أو تسمم أو قرحة في المعدة. وفي أحسن الحالات بالسمنة. سأنفر من جسدها الذي سيصير مكتنزا بالشحوم. سأشمئز منها ومن قرفها؛ لأن مضاجعة امرأة سمينة ومتعرقة من أكبر الكبائر، ومما يفقد الرجل الرغبة في النساء. وبعد عودتها، تجلس فوق "السداري" وتعرقه بمؤخرتها العفنة، ثم تتماهى مع فيلمها المفضل. إن هذا ما دفعني لكي نعيش في القرية"

قالت النفس اللوامة: "أنت لا تستسيغ امرأة بجانبك تقاسمك الزمن والحياة وهي عاطلة لا تنهض بأي دور. لا تتحمل أن تكون زوجتك عبئا عليك، ولا أن تكون عبئا عليها. لا تتحمل أن تركب إلى جانب لص مكبوت في حافلة، وبعد تضاريس جسدها، أو يحظى معها بمغامرة ماتعة".

قالت المطمئنة: "نعم. لا أستسيغ".

طهارة

لبس "أسي عزيز"، اليوم، جلبابه الواسع الفضفاض الذي تحركه الرياح الشمالية القوية. يصلي الناس في الدوار خارج المسجد بعدما نظفوا الساحة، خلفه، وأحاطوها بحاجز من القصب. يفضلون الخارج؛ لأنه بارد شيئا ما، ولأن الروائح التي تنبعث من المصلين لا يتحملها إلا الهواء الطلق. غازات تخرج دون إذن منهم. إذ تجد أحدهم واقفا في الصف، ويداه مقبوضتان على بطنه، ممسكا معدته التي لا تتحمل كميات الحريرة التي استقبلها جوفه.

ينام المصلي واقفا، ولا يستفيق سوى عند سماع عبارة "الله أكبر" التي يرددها الجميع أثناء الركوع. يركع، ثم تخرج ريح صرصرعاتية من خلفه فتُسلط على المصلين. يرتبك الصف، وتنتشر الرائحة الكريهة في الساحة. لاشيء يصدها. تخترق الصفوف والرقاب لتستقر في الأنوف. يشمها الفقيه، وينبه صاحبها في الركعة الموالية بقراءة آيات الطهارة. يخرج الفاعل متسللا حتى لا يعرف فيفتضح ويصير من أحاديث الصباح والمساء على جَنَبَات الطريق. الرجال في القرية لا شغل لهم. لا يتقنون سوى النميمة وأحاديث المجون. حتى وهم صائمون يفطرون بلحم إخوانهم!

خرجت كعادتي بعد الإفطار مع فاطمة إلى المسجد لأداء صلاة التراويح. كنا متأخرين شيئا ما عن الجماعة؛ لأننا أخذنا جولة مع بعضنا البعض

إيمانا منا بالآية الكريمة "فالآن باشروهن و ابتغوا ما كتب الله لكم". أخذنا حماما ساخنا معا بسرعة، و اتجهنا تلقاء المسجد. في الطريق، تبتسم فاطمة وتذكرني بتفاصيل المشهد الرومانسي. لم أشأ أن أقطع عنها فرحتها، وإلا فكنت لأنبهها أننا ذاهبون للقاء الله. لكن سرعان ما صمتت و ابتسمت في وجهها، وقلت في نفسي: "لقد صامت أزيد من نصف اليوم، فلماذا أحرمها من هذه اللحظات؟".

نصل إلى المسجد وفاطمة لا ترغب بترك يدي لتتجه إلى ناحية النساء. سحبت يدي لكنها تمسكت بها بشدة. كان الظلام يعم المكان، ويشي بسلطة غريبة. أسندتها إلى جدار المسجد، وتبادلنا الحب. قبّلنا بعضنا البعض، وعددنا تفاصيل جسدينا الطريين دون مراعاة للمقام.

كان صوت الفقيه جهوريا. وزادت مكبرات الصوت من حدته. كان يتقن القراءة بمقامات إنشادية جميلة. تتناغم القراءة مع التقبيل. لم نجرب ذلك، ساعة، والقرآن شاهد علينا. النشوة غريبة، والمقام غريب، وحتى جسد فاطمة كان غريبا. تثور فاطمة، وتمسك بجسدي بقوة حتى كادت تخنق أنفاسي. يمر بمحاذاتنا رجل خرج من بين الصفوف معلنا عن انسحابه كمحارب مهزوم، ينظر ناحيتنا ونحن متشابكان في تماهٍ و انسجام روحانيين تامين. لم يستطع أن يتعرف علينا، ننتبه إليه دون أن ينفصل الجسدان. أما أرواحنا، فلسنا ندري أين اعتلت.

إن رمضان شهر يغير الطباع؛ يغير المرء من ضبع إلى سبع، ومن فاجر إلى فائز. حتى بائعات الهوى يتبن. وحدهم الحمير يبقون حميرا. كيف لي أن

أنسى أنني أحببت فاطمة في رمضان، ونكحتها في ليلة القدر التي تتنزل فيها الملائكة، فقط. لتكون شاهدة على النكاح! أحببت أن أدخل بها في تلك الليلة المباركة. فأنا أومن بأن الله سيبارك لنا في بعضنا البعض في رمضان وفي غيره. لكن رمضان له سلطته وقدسيته.

سمعنا الفقيه قد أنهى التراويح بصلاة الوتر، خرج الناس و انتشروا؛ كل إلى كوخه. عدنا بدورِنا مع الجماعة دون أن نفترق. لا أنا أسير مع الرجال، ولا فاطمة تسير مع النساء. كنا مختلفين عن كل الأزواج في الدوار. كانت أكفنا متعانقة والأصابع تتحرك بين الفينة والأخرى، وكلما نظرتُ إليها أجدها باسمة، فأقول: "إن الحظ ابتسم لي؛ لأنها تحبني". أما النساء اللائي صلين خلف الإمام، فمتجهمات؛ أخافهن بآيات قرآنية من الوعيد بدخول جهنم والبقاء خالدات فيها.

نقف أمام البيت، أدخل المفتاح في القفل وأعالجه، ثم أدعو فاطمة للدخول، ثم أتبعها كي أغلق الباب بخفة يدي دون أن أدير وجهي. أطمع في النظر إلى ردفها حتى وهي معي.

كنت دائما أردد عبارة "النساء أولا"، فقط لأرى مؤخرتها تهتز. تعجب بنفسها هي، أيضا، حين أقول لها ذلك، وحين أمدحها و أتغزل بأردافها.

بيتنا القروي متواضع؛ مرحاض يؤدي وظيفة الحمام في الوقت نفسه، مطبخ صغير، غرفتان تغزو جدرانهما الكتب؛ واحدة للنوم، وأخرى للضيوف. في الحقيقة نادرا ما يأتينا ضيوف، لأننا نقضي معظم الوقت خارج

البيت، وحينما يأتي ضيف فإنه يعود إلى أدراجه بعد أن يُعييه طرق الباب. يترك أمارة؛ كي ينبئنا بزيارته. إنها سيمياء التعامل مع الأبواب في الدوار.

فضلت العيش في القرية، لأنني لا أستسيغ المدينة وبروتوكولاتها، وضوضاءها وسرعتها، ودواخنها، ونفاقها. كل شيء فيها يشي بالتكبر والأنفة. يتعامل الناس، فقط، بالجسد. والجسد لا قيمة له في غياب العقل والروح. اللباس في أبهى حلله، و"قصات" الشعر الغريبة بالنسبة لعالم القرية بين الذكور والإناث، العلاقات الحميمة على مرأى ومسمع.

تقبل الفتيات الفتيان، في الحدائق، ويضاجع عابرو السبيل بائعات الهوى. لا تشعر بالأمان في الحافلة، تنزل في محطتك، و قد فتشت جيوبك تفتيشا. يتحرش بالنساء سرا وعَلنًا. في الحقيقة، أعرف كثيرات يحببن ذلك. فمنهن من ترتدي ملابس شفافة وكاشفة، فقط، لكي يتحرش بها لص، وينزل معها في محطته، ثم يرميها بورقة مالية. تحس أن العالم كله كائن بين رجليها. النساء في المدن ماكرات؛ يعتبرن الأرض تدور لأجلهن، والشمس تشرق من شفاههن، والقمر مقدرا في أجسادهن. المدينة في كل تفاصيلها تساوي الجسد.

ليلة القدر

غَيَر أسي عزيز اليوم جلبابه المعهود الفضفاض الذي تحركه الريح، كما غير طاقيته الزرقاء بأخرى بيضاء، وأخذ مكان الإمام في هذه الليلة المباركة. لم أره يوما يؤم الجماعة. أهل الدوار، أيضا، لم يروه كثيرا. كان يؤم بالناس قبل أن يتزوج ويستقر في الدوار. كان حينها يأتي من "البيضاء" كما كل أبناء الدوار الذين يسافرون ولا يعودون إلا بعد مرور شهور وربما سنوات. يخلف المتزوجون زوجاتهم في الدوار. وزوجاتهم لا حول ولا قوة لهن. يرغبن في أزواجهن، وفي الخبز. لكن حينما يتذكرن شظف العيش ومرارته، يصبرن، ويمنين النفس متى يعودوا؟ يحلمن بأزواجهن مثلما تحلم المراهقات بلقاء فرسانهن. ينمن وكلهن لذة. يستفقن وكلهن رغبة والرعشة تملأ أجسادهن الطرية الجاهزة للتشظي كقنابل موقوتة جاهزة للانفجار في أية لحظة.

حياة النساء صعبة في الدوار. والدوار لا يرحم أحدا. لا يرحم من يكد ويجد ويعرق، فما بالك بمن يمسك يديه عن العمل آناء الليل وأطراف النهار. زوجات كثر سلمن أنفسهن لرجال متسخين ينعتون بالمجانين أو البوهاليين؛ إذ لا شغل لهم.

تنتظر النساء أزواجهن بفارغ الصبر. يصبرن ويصبرن، لكن دون جدوى. أخيرا يستسلمن لقدرهن، ويرتمين في أحضان الحمقى والمغفلين. على الأقل تلبى رغباتهن الدفينة. وحينما يتحقق الوصال، وتشبع الرغبات؛

يندمن على عدم صبرهن كفاية. هن الآن بين مطرقة الخيانة وسندان التهديد بضرورة إعادة الحادثة. يخترن الثاني لأنهن أصلا يردن الحياة الدنيا وزينتها، فيقعن وسط منشار يأكل منهن كلما صعد ونزل. هن، أيضا، يؤمنن أن أزواجهن لا يمكن ألا تكون لهم خليلات في الغرب.

يفتتح "أسي عزيز" الصلاة بسورة الفاتحة، لكنه يرتبك، ثم يتبعها سورة النساء. حياته كلها كانت مع النساء. ورغم حفظه لكتاب الله، إلا أنه فضل قراءة سورة النساء. ولما سألوه

بعد صلاته. قال: "إنني نسيت ما حفظت منه سوى سورة النساء".

يا للعجب! ينسى كل محفوظه إلا سورة النساء! طبعا. كيف ينساها وحياته كلها كانت مع النساء. فحتى البيت الذي ترعرع فيه كانت فيه النساء فقط. لا وجود للرجال. كان "أسي عزيز" يقرأ إلى أن بلغ آية التعدد في الزواج، ففرح فرحا شديدا. فقد انتبه، وللمرة الأولى، أن بإمكانه الزواج من أخرى.

فكر، وهو يقرأ، في الطلاق. لكنه قال، في نفسه:" إنه أبغض الحلال". أسي عزيز، الآن، يخطئ في القرآن. تخبطت عليه الآيات. ينتقل من سورة إلى أخرى دون أن يترك فرصة للمصلين خلفه ليصححوا له. ربما فكر في نفسه وقال "لمَ لا نقرأ بهذه الشاكلة؟ "هل من الضرورة قراءته بهذا الشكل المرتب؟

وجه المغاربة الآخر

قالت النفس اللوامة بنبرة حادة: " أسقطوا القناع. كمّموا أفواه الحمقى والمغفلين، وأعداء الإنسانية".

قالت النفس المطمئنة: "ما بالك تذكرين سقوط القناع؟

فأجابت: "على مر التاريخ، وتوالي الدول على حكم المغرب، ثمة عقدة قديمة/ جديدة في عقول المغاربة، وقلوبهم، ومعتقداتهم. ومهما حاولوا محوها، أو طمسها، أو نسيانها إلا أنها، دائما، تطفو على السطح؛ فتتجلى، بذلك، في تصرفاتهم، وتعاملاتهم، وخطاباتهم. يسعون إلى عقد لقاءات، وبرامج تلفزية، وإذاعية، وإلقاء محاضرات.. إلا أنهم لا يفلحون.

العقدة أيتها النفس المطمئنة، حتى لا تتهميني بزرع الفتنة هي: "كان ثمة ثديان، واحد أسود، والآخر أبيض. وكان ثمة رضيعان. وكلا الرضيعين يرضعان حليبا بلون واحد هو الأبيض. فأين الإنسانية؟ أين السلام؟ أين التعايش والتزاوج؟".

قرأت النفس المطمئنة قوله ﷻ:" الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب".

ثم تلت النفس الأمارة بالسوء: "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء".

الحداثة..

جالسا، كعادته، على كرسي في الجانب الأيمن للمقهى، مدبرًا ظهره إلى داخل المقهى، ومواليا وجهه تلقاء الشارع، وضع نظارته السوداء التي يخفي بها عينيه اللتين يقلبهما، في المارة من النساء، ذات اليمين وذات الشمال، وكوب القهوة البارد يلفُّ أطر افَه الذباب.

يفتح فمه ملء شدقيه كلما مرت أمامه امرأة ذات أنوثة أخّاذة. لا يستفيق من سباته ذاك، إلا عندما يسمع ضجيج حافلات النقل وصرخات الركاب. وقبل أن يستفيق، يكون قد جال جولة ماتعة في أعماق الأنوثة؛ يجرد الأجساد من كل ملابسها، وخرقها الداخلية؛ ويستمتع، في لحظات مسروقة، بأجثاث معطوبة كان ذنبها أنها مرت بمحاذاة المقهى، لأنها كانت مجبرة على الخروج من بيتها، والتسكع في الشوارع كي تعود بما يتقوت به صغارها

كان دائما يحاجج زميله في الجامعة أن جمال المرأة يكمن في اتساع خصرها، لا في بياض أو سمرة..لونها، أو في نبل أخلاقها؛ يحصر الجمال كلَّه في المتعة فقط. أما زميله، فيقول له: إن المرأة الكريمة، الصبورة، المعطاءة وحدها الجميلة. فبقدر سماحتها، وعطفها، بقدر جمالها.

قبل أن يؤدي ثمن القهوة، يضَعُ قبعته السوداء التي لا تفارقه كأنما صممت له، ثم يرتشف ما تبقى من قهوته السوداء متلذذا بآخر جسد تقع عليه عينه.

يقفل في تجاه البيت وقد امتُلئ بالحداثة. لقد تأكد نادل المقهى أن الحداثة أرست دعائمها القوية وفتنها التي تتحكم بها في الشعب. المغاربة شعب يكتفي باللحظة ولا يضرب أي حساب للغد. يكفيه ما يطفئ به كبته اليوم، وللغد رب حكيم.

الكلاوي

"سأل: ماذا وراء الموت؟؛ تاب"

في سنوات خلت، وفي عهد قائد طاغية يدعى القائد الكلاوي، ما من حبة بلح تسقط من نخلة بوادي درعة، إلا وتجد لها عيونا ترقبها وتعدها، وما من دجاجة تحضن بيضها، إلا وخبرها عنده، وما من امرأة جميلة إلا و اقتيدت إليه، وما من دابة تحرث الأرض، أو تأكل العشب وتربي شيئا من اللحم والشحم، إلا وصارت ملكه..

في تلك السنون الماضية/ الحاضرة، كان ثمة حكم طاغ. لم تكن الحرية إلا لذوي العيون المفتوحة، والآذان المتجسسة، والأيدي الباطشة، والأجساد المفتولة، والألسن السليطة. كانت كل قصور القائد وقصباته المزروعة من الحدود الجزائرية المغربية بالجنوب الشرقي؛ بدءا من المحاميد الغزلان حتى مراكش، تعج بالسهرات وليالي الأنس والطرب والغناء والمجون. وفي الليالي نفسها تجد القرآن يتلى والأوراد وقصائد المديح النبوي. خمر يجري آناء الليل، ونهود هنا وهناك، يضيع العلم بين أفخاذ الجميلات. وفي الوقت نفسه، قرآن يتلى آناء الليل والنهار، والبخور، ور ائحة الند، والعنبر، والفاسوخ، والجاوي...تصعد في السماء في خشية ورهبانية الشيوخ ولحاهم ودموعهم.

كل هذا التناقض لم يكن في قصور الكلاوي وقصباته، بل كان في قلبه، الذي يكن الحقد والكراهية للمعطوبين وغير المعطوبين. وحدها القبائل القوية، والتي يستنزف خيراتها يمد لها يد العون، حتى إذا سلبها كل ممتلكاتها وأسلحتها، وشيوخها، وجوعها، جعلها عبيدا وخدما له.

موت قلب

"لا ندرك قيمة المراحل إلا بعد طقوس العبور"

أنهى طقوس دفن زوجته مع الجماعة. صافحته أياد باردة وأخرى ساخنة، إلا أنه أحس ببرودتها جميعا. حاول أن يقوم من على القبر، فلم يستطع. خانته قواه وركبتاه لأول مرة. أول مرة سيفقد فيها إنسانا عزيزا عليه؛ بل نصفه الثاني. أحبها بكل قوة وعنف وعنفوان. خططا معا لمستقبلهما؛ متى سيتزوجان، أين سيقيمان العرس، عدا تكاليفه، ومكان قضاء شهر العسل، واستمر بهما الحلم حتى تحديد عدد الأبناء الذين سينجبون..

اليوم، ها هي قواه تخونه على الوقوف. تحطمت الأحلام، فصارت يبابا. أرضا بورا "كأن لم تغن بالأمس".

قبل القبر، ومسح ترابه بيده اليمنى. لو كان بإمكانه أن يصطحب قبرها معه لفعل، ولو كان بإمكانه الاستقرار بجانبه لفعل. لكن ماذا سيفعل؟ هل سينساها مع مرور الوقت ويتزوج بأخرى كما يفعل الرجال عادة؟

قست عليه الحياة كثيرا. تَحطم قلبه، وهو في بداية الطريق. نهض، بعد أن استجمع قواه، وشم رائحة الزعتر البلدي، و"الحبق"، و"الشيح"... نظر إلى السماء، فرمته بقطرات باردة. مسح القطرات الخفيفة، و انطلق إلى بيته.

هناك، وبركن ركين، أخذ المصحف، وشرع يقرأ بعض الآي. وضع المصحف جانبا، أشعل سيجارة، وأعقبها أخرى، وبقي هكذا إلى أن أنهى العلبة.

ارتشف كأسين من الشاي البارد، وارتمى بجسده فوق السرير. غط في سبات عميق حتى الصباح. استيقظ متأخرا، وكان من عادته أن يتناول وجبة الإفطار مع زوجته بعد أن تُعدّها. انتظر طويلا كي تأتيه بالطعام، لكن الحياة قالت له مجددا: "لا". قام من مقامه، وصرخ بصوت عال: "أحبك وهذا آخر الكلام."

لف حبلا حول عنقه بعد أن ربطه في سقف الغرفة، اعتلى الكرسي الخشبي المهترئ، أحكم الحبل حول عنقه، حرك الكرسي بقوة، سقط الكرسي، وتحركت رجلاه في الهواء تغدوان وتروحان. مات، والتحق بزوجته، وهناك قرر أن يفطرا معا.

رحلة

قررت، اليوم، أن نذهب إلى "الفيلاج" على متن دراجتينا الهوائيتين لنستنشق بعض الهواء هناك. كان أول شيء فكرنا فيه وفي الاستمتاع به هو الحديقة. بعد أن تناولنا إفطارنا، صلينا صلاة المغرب، جددنا وضوءنا ور اقبنا حالة الدراجتين وخرجنا.

كانت الطريق بين الدوار و"الفيلاج" مظلمة، وكنت أسمع عجلتي دراجة فاطمة حين ترتطم بالحجارة أو تسقط في حفرة من الحفر، فألعن المسؤولين ورئيس الجماعة الذي وعدنا كم مرة ليعبد الطريق فأخلف. ألعن حتى رؤساء الحكومة واحدا تلو الآخر. فقد كان كل واحد منهم يعدنا بالإصلاح، وحالما تتحسن أوضاعه هو بعد النجاح يثقل كواهلنا بالزيادات والضرائب وغلاء الأسعار والمعيشة. تذكرت قول أسي عبد الله البناء: "هز الكلب حط الكلب حتى لقاع الشواري"، فقد قال لي: "إنه كان ثمة رجل يبيع الكلاب، وملأ "الشواري" فوق الحمار، وكانوا جِراء، وكانت النساء من زبائنه. وحدث أن جاءته إحداهن ذات مرة، فاستوقفته لشراء جرو. وكانت المرأة ذات ذوق وتفنن في اختيار كل شيء. فلما رأت الجرو الأول أعجبها، فأخرجته، ولما رأت الثاني أعجبها وأخرجته، ووضعت الأول على الأرض.. وهكذا إلى أن أخرجت كل الكلاب. فلما انتهت، قال لها الرجل: "إنها كلاب كلها يا سيدتي.

فهل تطمعين أن تتحول إلى أسود؟"، ثم أردف قائلا: "هز الكلب حط الكلب حتى لقاع للشواري".

لعنت المسؤولين في صمتي، ولم أسمح لهم؛ لأن جسد فاطمة صار معطوبا جراء وقوع عجلتي الدراجة في الحفر. وخجلت كثيرا، لأنها تتحمل كل هذا من أجلي. و أنا لا أبذل أي مجهود لتحسين وضعية الدوار لترتاح. كل همي أن أسعدها في الليل وفي الصباح وفي أي وقت ومكان بتلبية غرائزها.

أعلم أنها ما كانت لتأتي للدوار وتقبل العيش وسط الأوحال، والأزبال، الذباب، والغبار، والسباب، والحفر.. لولا الحب. وكما يقال: "لمرا ماشي الخبز ألي خاصها فدار أبّاها"!. ينقصها الحب.

وصلنا إلى "الفيلاج". كان كل شيء مختلفا؛ الإنارة ساطعة، ومتنوعة الألوان: الأزرق، والأصفر، والأبيض، والأحمر، والأخضر...في حين أن إنارة المصابيح في الأعمدة إن وجدت كلها بالأصفر وضعيفة للغاية. نظرت إلى فاطمة، فإذا بي أرى وجهها منيرا كالقمر. كانت جميلة جدا بفعل الأضواء. هل يعقل أن أناس الدوار جميلون أيضا؟ وأن الإنارة الضعيفة حجبت عنهم الجمال؟هل يعقل أن يكره المسؤولون الدوار لدرجة منع الجمال عن أناسه بتقليل الإنارة؟

على ما يبدو أن المسؤولين لا يريدون من أهل الدوار أن ينشغلوا بجمالهم وأجسادهم مثل اهتمام أهل المدن و"الفيلاج" بالجسد. يريدونهم قابعين في العتمة، وفي أعمال الفلاحة، والحَفْر في حقول صغيرة تشبه القبور في ضيقها أو رقع شطرنج تزداد ضيقا في كل انقسام أسري أو عائلي كما

تنقسم خلايا الجسم؛ حيث تقسم الحفر بتقسيم التركة. يا لها من حياة مبدؤها التقسيم والتجزيء والمحاسبة.

مررنا قرب المحطة وبقيت فاطمة تنظر إلى حافلة ذكرتها بتلك التي جاءت بها أول مرة للدوار عروسا. ربما هي الآن تلعنها في صمتها أن جاءت بها إلى هذا المكان القذر المعتم. وربما تشكرها، في صمتها، أنْ لاقتها بي وبالعتمة.

العياشي و"الهندية"

"احترق بشدة؛ أضاء طريق البلاد"

العياشي الرجل الفقير، وبوّاب الخزينة العامة، لا يُلام، اليوم، على ترديد: "عاش". ما يلام عليه هو تقصيره المفرط في عدم التعلم وإعمال الفكر والأخذ بالأسباب؛ فقد قرر أن يعيش حياته كلها تحت "الصّبَّاطْ"؛ "نعَمْ أسيدي، أَشْ خَاصَّكْ أَمُولاَيْ..". لا يتصور حياته دون خدمة من هم أعلى منه؛ رؤساؤه، وكل الموظفين الذين يشتغلون في الوكالة البنكية.

يفتح الباب باكرا، ويسقي بعض الطفيليات، التي لا تتمر ولا تزهر. هي أشبه بالموظفين القابعين خلف مكاتبهم. لا ينفعونك بشيء إن لم يضروك.

لقد سمعت أن العياشي يحب "الهندية"، وكثيرا ما تسببت له في مشاكل صحية. لهذا، ووفاءً لهذا الحب، فهو يُفطر بها كل صباح. يمر بائعها مرددا: "الهندية رَبْعِين، الهندية خَمْسِين، الهندية عشرين، الهندية عشرة"... ثم يعيد ترديد لائحة الأثمنة بشكل ببغاوي. لكن العياشي ينتظر أن يردد البائع ثمنا أقل من عشرة، لكن دون جدوى.

يتحسس الدريهمات القليلة في جيب عميق يشبه البئر. يعدّها دون إخراجها: "هذه عشرة، هذه مائة، هذه ربعين مجموعة، هذا درهم". ولأنه فقير معدوم، فهو لا يعرف سوى القطع النقدية. أما الأوراق المالية، فيراها في أيدي الموظفين حين يعدونها للزبائن. يا للعجب! العياشي يردد عبارة: "عاش

المدير" حينما يحصل على راتبه الشهري. يسلمه، بعد عودته، مباشرة، لزوجته عائشة.

هي تعرف، على الأقل، كيف تدبر به مصاريف الكراء والبقالة وفاتورتي الماء والكهرباء...وإلا، فإن العياشي سيلتهم راتبه كله في "الهندية".

حلم العودة إلى باريس

"بعض الذكريات وطن حين تطفو على الذاكرة"

انتهت السنة الدراسية، وفكر المعلم في زيارة باريس. فكر في زيارة مقهاه المفضل "دُفرونس"، وشرب مشروب بارد ممزوج بقطع الثلج. كان يحلم بزيارة المكان كل ليلة، واسترجاع بعض ذكرياته. لكن هذه المرة لن يكون لوحده؛ سيصطحب فاطمة لأول مرة معه. ليزا أيضا لم تتعرف على فاطمة بعد. لكنها أحبتها من خلال المكالمات الهاتفية التي تجريها كل يوم.

حزمت فاطمة حقيبتها، وودعت الدوار، وقبلت نعاجها، ومسحت دموع جارتها السعدية، التي أصيبت بالدوار، فقط، حينما علمت أنهما سيسافران على متن الطائرة..

أجرى المعلم آخر اتصالاته، وودع أصدقاءه. فكر في ليزا: كيف ستستقبله وهو مع فاطمة؟

هل ستبادله الذكرى، أم ماذا؟

لم يعبأ بكل ما يحول حوله آنذاك في الدوار. كان تفكيره منصبا على باريس. وعلى نهر الرين، الذي كان شاهدا على لحظات ماتعة بيته وبين ليزا.

اليوم، صارت ليزا حلما، وذكرى في الآن نفسه. فالوصال مستحيل، والتفكير في الذكرى مؤلم. وحتى إن حدث ذلك، فهو خيانة لفاطمة.

لعل وجود فاطمة في حياته غير الشيء الكثير. ولعل اختياره البقاء في الدوار كان سببا حقيقا، ولعل العودة من فرنسا إلى الوطن، والتفكير في عمل مناسب كان السبب.

إنه حينما يفكر جيدا، ويتأمل في الأمر الواقع، يجد الوطن هو السبب في كل ما يحصل له. وأحيانا، يلوم حبه الزائد للوطن. فلو بقي في باريس، وتزوج بليزا، واستقر هناك، كما قالت له، ودرس العربية لغير الناطقين بها هناك، لكانت حياته جميلة.

سيعود في الصيف كما كل المهاجرين راكبا سيارة "غولف" راقية، ولابسا شوطا قصيرا، ومفاتيح السيارة في يده. وسيكون أبناؤه أبناء شقرا. لونهم يشبه لون أمهم ليزا، وملامحهم تشبه ملامح أبيهم، المائلة إلى الأفارقة.

سيتحدثون دارجة ممزوجة بالفرنسية، وسيعتقد أبناء الدوار أن فيهم "تكبرا زائدا"، وأنهم يتحدثون بتلك الشاكلة، فقط، ليقولوا لهم "إن فرنسا ليست كالدوار؛ إذ بإمكانهم تعلم الفرنسية بكل سهولة."

وتعلم الفرنسية والنطق بها بشكل سليم، هو حلم كل من يعيش في الدوار. الكل يمني نفسه أن يتواصل مع السياح النصارى، الذين يقدمون لتفقد القصبات والقصور الموجودة على طول الوادي.

لو بقي في فرنسا لأنهى الدكتوراه هناك، ولاشتغل هناك بـ"كوليج دو فرانس" أو بإحدى الجامعات أستاذا محاضرا. سيكون جوهرة فريدة من نوعها، وهو يلقي محاضراته هناك مثلها "أدونيس" والعرب الآخرين. سينظر إليه الفرنسيون نظرة احترام ووقار.

لو بقي في فرنسا ربما صار كاتبا مشهورا، وربما تباع كتبه بالملايين. لكن، ماذا لو تزوج بليزا ولم يتأقلم معها؟ ماذا لو كان صديقها توماس يزورها كما كان يفعل؟ ماذا لو كان يختلي بها؟ ماذا لو كانت ليزا تخطط هي الأخرى لحياة أخرى غير ما هي عليه؟

ربما خاف من كل هذه الأسئلة، ومن المستقبل المجهول. لذلك عاد إلى الوطن؛ عاد إلى الدوار. واختار أن يعيش بقية حياته مع فاطمة. واختارته فاطمة رغم أنها جاءت من المدينة لتستقر معه.

هل يعلم المرء معنى أن يتخلى الآخر عن حلمه، الذي أوشك على التحقق؟ إنه يعني الموت البطيء. إنه يعني أن تصلب بعد أن ترجم، وتبقى روحك معلقة بين السماء والأرض. الإنسان لا يفهم أن في دوار صغير، كما في مدن كبيرة، ينمو الحب، ويعيش، ويترعرع..لا يفهم أيضا أن الإنسان يغيره الزمن ويقهره.

النساء في الدوار يرغبن في أن يقبل الشباب أيديهن احتراما لهن، حتى وإن كانوا أجانب. إنها علامة دالة على مكانة المرأة العالية، وكبريائها، وقدسيتها. وإذ ينظر المعلم إلى هذه التصرفات، ويذكره ذلك بتقبيل الرجال أيدي النساء في باريس، يكتشف أن الأنثى أنثى أينما كانت، وحيثما عاشت. فهي تحتاج إلى من يشعرها بقيمتها و أنوثتها.

اعترافات أولى

"أينما وُجد الاعتراف وُجد الحب"

قررنا، اليوم، أنا وفاطمة أن نتخذ ساعة للاعتراف بعد كل وجبة عشاء. يتحدث فيها كل واحد منا عن علاقاته السالفة بالجنس الآخر. شرعت في الحكي، وبدأت بقصتي مع وصال. ابنة الخليفة في "الفيلاج". كانت بنته الوحيدة. ماتت أمها منذ ولادتها، ولم تتمتع بالنظر إلى وجهها، ولا بامتصاص ثديها. فتحت عينيها على أبيها الخليفة بشاربه الطويل الكثيف، الذي يخيف به الناس كلما أطل بوجهه من نافذة سيارته الفارهة. بنته جميلة لدرجة أن القوام كله ربما اجتمع فيها.

وصال، الآن، في السابعة عشر من عمرها، ولكونها ترعرعت واشتد عودها، وبرز صدرها وردفها وطال شعرها..في مدينة البيضاء، وفي حي المعارف الراقي، فإن فيها شيئا يشي بالأنفة والتكبر. تميل ميلا لطيفا فيه شيء من التغنج، تمزج الدارجة المغربية بفرنسية ركيكة. تدع شعرها منسدلا على كتفيها كشلال. كانت مراهقة قابلة للانفجار في أية لحظة. وبما أن أباها يشتغل خليفة، فإنها لم تستقر في الدار البيضاء. تنتقل من مكان إلى آخر. لذلك لم تتح لها فرصة التعرف على شبان كثر هناك. حي المعارف الراقي قريب لدرب غلف البسيط الذي يأوي الفقراء.كان يعرف حركة فريدة؛ النساء والرجال والأطفال يبيعون أي شيء. النساء يتشاجرن ويتناطحن في ما بينهن

كثيران هائجة. سكارى الحي يجرحون أيديهم بالسكاكين وشفرات الحلاقة. الحياة هناك صعبة، والبقاء فيها للأقوى.

كانت وصال تتردد بكثرة على درب غلف. وهناك عرفتها حين جاءتني تشتري منديلا بعد أن فتحت باب سيارة أبيها الفارهة، واندفعت منها كعارضة مكتملة الأنوثة. وبعدما انتهت العطلة الصيفية، وعدت إلى دوارنا لنعود إلى حجرت الدراسة، التقيت بها في "الفيلاج" بمعية أبيها.

كنت مراهقا قرويا. وكنت كما كل تلاميذ الدوار أدرس مرحلة الإعدادي والثانوي في "الفيلاج".كان علي أن أقطع المسافة على متن دراجتي الهوائية صباح مساء، شتاء وصيفا. شبان القرية يعانون في صمت، وفي غير صمت. كان فقرنا باديا على ملابسنا. لا نصل إلى المؤسسة حتى ينتقم منا الغبار المتناثر هنا وهناك. فما إن تمر سيارة أو شاحنة محملة بالرمال، حتى يتطاير الغبار ليملأ المكان. أما نحن فلا حول لنا ولا قوة. لا نجد مخرجا ولا سدا منيعا. نصبر ونصبر حتى نبلغ المؤسسة ونتجه تلقاء الصنبور. كان طعامنا في أغلب الأحيان تمرا. نقطع المسافة ذهابا ونحن فرحون. نعود ونحن فرحون. كنا نبدو في أعين مراهقي "الفيلاج" كمخلوقات آتية من كوكب آخر؛ كوكب لم يعرف تطورا ولا تمدنا.

سألتني فاطمة:

- "وكيف كان اللقاء الثاني و أين؟".
- "كان بين أسوار الثانوية سنة ألفين وثمانية، حيث ذكرتها أنني من باع لها المنديل في البيضاء.. وحينها أخبرتني أنها ابنة الخليفة، وأنها ستتابع

دراستها معنا؛ لأنهم انتقلوا إلى "الفيلاج" بسبب وظيفة أبيها الذي كلف بمهام في الجنوب".

- "كان حبا بساق واحدة. فقد كانت كشجرة البامبو لا قرار لها. أينما حملها إليه والدها ووضع ساقها تتثبت بالأرض، وأحبت شخصا آخر، ونسيت جذورها الأولى".
- "كان حبا معتما إذن".
- "بل كان حبا شفافا؛ لا غبار عليه. لكنه كان بساق واحدة".
- "وهل يوجد حب بساق واحدة؟!".
- "إنه الحب الذي يكون من جهة واحدة".

أطفأت فاطمة ضوء الغرفة وقالت: "نتمم اعترافاتنا غدا. لندع الكلام للعتمة الآن.

بدو في العراء

"يكفي أن تحل العتمة ليكسى العراء ويختفي"

كانت فاطمة جالسة داخل زريبة تملؤها رو ائح البهائم بشتى أنواعها؛ الأبقار، والماعز، والأغنام..وكانت توزع عليها الحبوب، والعلف، والعشب الذي جلبته من الحقول.

تصبب العرق من جبينها، وبدا العياء على محياها. ورغم ذلك، فقد قابلتني بابتسامة عريضة حينما نظرت إليها.

قضت طفولتها، ومراهقتها في المدينة. ما يعني أنها عاشت تجارب ومو اقف متناقضة مع حياة الدوار. وربما كانت لها آمال وأحلام وطموحات. فهي التي قضت حياتها في التحصيل الدراسي كي تحصل على وظيفة..لكن ماذا تقول للأقدار؟ هاهي، اليوم، توزع العلف على البهائم، كمسؤول يوزع الغنيمة على العمال، أو كأم توزع كعكة على أبنائها الصغار، أو ككلبة وفية وحريصة، تسلم أثداءها لجرائها الصغار.. لكن عليها بالصبر. عليها الاستمرار في الحياة، عليها أن تتأقلم مع وضعها الجديد. عليها أن تؤمن أن الحب لا يأتي، دائما، بالطيب وبالعسل.

طرق أبوها القائد باب المنزل ثم فتحته. سلم علي سلاما باردا، ودخل دون أن أطلب منه ذلك، وشرع بالمناداة على فاطمة، و أنا أر اقبه من الخلف. وقفت به قدماه عند بداية الزريبة. نادى، وردت عليه فاطمة:

- "انتظر حتى أنتهي من ألقي ما في يدي".

خرجت فاطمة، واستقبلت أباها بابتسامة، وحاولت أن تعانقه، لكنه تجنب ذلك، حفاظا على بدلته! أحسست بالذنب حيال تعامله البارد واحتقاره لزوجتي. دخلنا إلى الصالون، رحبنا به بحرارة، وبسرعة استحمت فاطمة، وأعدَدْتُ براد شاي، وإبريق قهوة، ووضعت الحلوى، وبعض الفواكه الجافة على المائدة. عطرت الجو برذاذ ماء الورد الليمون، خرجت فاطمة بلباسها الوردي، فبدت كوردة من الياسمين.

القائد ساخط على الوضع الذي تعيش فيه ابنته. وها هو، اليوم، يطلب منها، وبحضوري، أن تطلب الطلاق. استغربت فاطمة، ورفضت فكرته دون تفكير. ثم أردف قائلا: "صاحبي الباشا باغي يخذك".

استغربت فاطمة لقول أبيها، ولشهامته، ورجولته وغيرته...لم أتصرف إزاء قول القائد، وبقيت صامتا. فماذا سأقول لشخص أعماه الطمع، ولا يفكر في راحة أبنائه النفسية. يفكر في مكانته الاجتماعية، وفي مكانة أصهاره وأصدقائه.

انصرف القائد غاضبا متأسفا على ما آلت إليه ابنته. فقد ضحى بالغالي والنفيس كي تصير ابنته طبيبة أو محاضرة في الجامعة. لكن أحلامه انهارت وصرت كابوسا مزعجا، بل لا أستبعد أن يقتلني في أي لحظة تسنح له الفرصة. كثيرا ما ألوم نفسي على هذا الزواج ألا متكافئ. لكني حينما أتذكر حالة جارنا عزيز أحمد الله كثيرا، وأتعلق بفاطمة وبقلبها. فقد فكر عزيز في الزوج كي ينسى، لكنه فقد عقله بالنهاية بسبب صهره. أما جارنا الآخر المختار، فقد أحب شابة حسناء وحاول أن يستقر بعد أن تزوج؛ أن يكتري بيتا، ويؤثثه بشكل تدريجي. لكنه ظل طول حياته يرد ديون زواجه إلى أن مات!

محاكمة

وقفت أمام القاضي غير آبهة لما سينطلق به لسانه. سألها: "لماذا قتلته"؟

أجابته: "لم يؤدي لي مستحقات عرق جبيني".

-"وما طبيعة الخدمة التي قدمتها له"؟

- أجابت: "المتعة، اللذة".

عمّ سكون حاد قاعة المحكمة، ثم انطلقت وشوشة طفيفة بين الحضور، ثم تعالت أصوات بعد ذلك: "زانية، عاهرة، مومس، باغية...".

خيّم صمت رهيب مجددا على القاعة، ثم سألها القاضي مجددا: "ومن أرغمك على البغاء؟"

بنبرة حادة أجابته: "أبواي مريضان؛ وبحاجة إلى فحوصات وأدوية كل آخر أسبوع. وإخوتي سبعة صغارٌ لا يقدرون على العمل، وعليّ أن أعينهم. فمن أين لي بكل هذه المصاريف؟".

مجددا يحط الصمت أجنحته السوداء على الحضور. ثم انطلقت بعدها أصوات: "الشفقة، الرحمة، بريئة، صالحة، طاهرة..".

لم يمنع كل هذا قاضي الجلسة من مواصلة أسئلته الحادة الجارحة كالسهام.

– "ولمَ لمْ تفكري في مهنة شريفة؟".

أجابته، وقد أحس بشيء ثقيل يحبس أنفاسه:

- "لقد حاولت أن أحب هذا الوطن، ولكن لم أستطع أن أحب وطنا بألف قناع. لقد درست وتعلمت إلى أن حصلت على شهادات عليا، آخرها دكتوراه فخرية في القضاء. امتهنت القضاء بنزاهة في قضايا المخدرات والتزوير وأكل أموال الناس بالباطل، غير أنني فوجئت بقرار العزل. ومن وقتها قررت أن أُدخل الشهادات، التي حصَّلتها إلى دورة المياه، ثم أمارس بعدها مهنة شريفة.

غِوايات المطر

"بين المنزل والمسجد؛ ينقض الوضوء"

توجهت مريم إلى الشارع تتوسل وتتسول. لم يرحمها أحد. حتى وهي تتسول تتعرض للتحرش. فحتى الذين يظهر عليهم سيمياء الوقار والإخلاص يتحرشون بها بعد أن يضعوا درهما أو أقل في يدها. يهمسون لها بثياب حريرية فاخرة، وحمام ساخن، وأموال طائلة، واستمتاع ملائكي في شقق مضاءة بمصابيح بأشهى الألوان.

يا للإنسان! مهما تَقَنّع، ومهما تديّن، ومهما تصنّع العَفاف، إلا أنه حيوان بغريزته. يتلذذ حين يرى الفقراء، والمعدمين. يتلذذ حين يرى الأم على الرصيف تسعى، يَتلذذ حين يأوي إلى بيته وينظر من نافذة مشرعة على السكارى والحمقى والمغفلين، لينتشي بأخبارهم، وقتالهم، وتبادل السباب والشتم في العتمة.

انتقلتْ من الشارع لتتخذ أبواب بيوت الله مأوى وحاميا. كانت ترى أن مَنْ يَمْثُل بين يدي الله، لا يمكنه أن يتلذذ بصوت شابة تردد: "أعينوا هذه المسكينة جزاكم الله خيرا...".

تعتقد أن لذة الرجال تطفئها طقوس العبادة. لكن إيمانها لم يكن صادقا. فقد ذهب أدراج الرياح، وجرته بعيدا نحو الظلام. فما إن يخرج أحدهم من المسجد بسرواله الأبيض، وجلبابه الأبيض الفضفاض، وطاقيته التي تعلو الرأس فتغطّيه، حتى يتقدم تلقاءها. يلقيها بدرهم أو أقل في أحسن

الحالات، وفي الأغلب الأعم يحظى بنظرات لا تخلو من "إيروسية"، أو محادثة لا تخلو من لذة وكبت.

ينزع أغلبهم غطاء الرأس إذ يراها كأنما ينزع لباس التقوى. أما هي، فلم تعد تستغرب لهذا الفعل، فالأشجار هي الأخرى تتقنَّع ثم تُلقي بأور اقها في الخريف. وحده الإنسان لا يستطيع أن يلقي باللذة.

صار كلّ شيء أمامها، من حولها، معها...يؤلمها. حتى أبواب المساجد تُؤلمها؛ فنظرات الناس إليها مؤلمة. ما أصعب أن تلجأ إلى أطهر الأمكنة فترفضك، وتتركك للهباء، والخواء. فلماذا علينا أن نحب الضّوء، ونحب في الضوء؟ ففي البدء كانت العتمة. لكن الذي اخترع المصباح كشف جزءا كبيرا من عورات الناس. كان علينا أن نحب العتمة ونسير فيها مثل القطط وألا تخيفنا.

ما أصعب أن تتكئ على أهل الدّين، فتجدهم مجرد ممثلين داخل مسرحية يفترض أن تكون و اقعية، صادقة...لا مزيفة ومزورة في أحداثها. أن ترفضك المقدسات معناه أن لعنة اللذة لحقتك وإن لم تكن أنتَ سببها وفاعلها. يكفي أن تكون الهدف والمسعى. ومثلما يحصل لأفعى مجروحة حين تنظر إلى النمل يتناوب على جراحها حتى يفصلها نصفين، ويتقاسم أجزاءها، أمام عينيها القنّاصتين، حتى تصير ذكرى، يحصل مع كل من كان هدفا للذة الآخرين. فالنمل نمل وإن سبّح أو سجد. واللذة لذة وإن أحكمتَ عليها بالمفاتيح والسياج والأغلال. اللذةُ لذة،وهذا ما في الأمر.

أخيرا رمقتها امرأة خرجت للتو من المسجد بعد صلاة العصر. كان الجو ماطرا، وكانت الفتاة، بجسدها الغض، تردد عبارتها المعهودة التي حفظها المصلون عن ظهر قلب مثلما حفظوا الآذان. انتظرت المرأةُ التي ستصير، فيما بعد، صديقة تحت "قصدير" إحدى "المجبنات" حتى انقشع المكبوتون. كانوا يطيلون النظر إليها. فهي فرصة للتلذذ بذاك الجسد الغَض الذي بلّلَه المطر. كانت المسكينة ترتجف من شدة البرد، ومن المطر الذي طهّر جسدها، فيما كانوا يلتهمونها بنظراتهم، ويتصورونها عارية، ويعتصرون كل جزء أنثوي بارز فيها.

يا للوقاحة! يا للحقارة! أي درجة بَلغها المسلم؟ وإلى أين يتجه؟ ما بال اللذة تسكن الأمكنة المقدسة؟ ألا تكفيها مصانعها حتى تجيء إلى المقدسات؟!

توجهت الصديقة تلقاءها. كانت دموعها تسيل بغزارة، وكان المطر يمسح عنها الدموع. إنها فرصتها لتبكي بحرقة، ويمسح المطر دموعها دون أن يشعر الناس.

المدينة كهف مظلم مليء باللذة، ودخوله قد يعني الوقوع في الشّرَك. المدينة مصنع للذة، والكبت، ومصب لكل هذا أو يزيد.

نزلت يدُها الساخنة على خديها تمسح عنها ما تبقى من الدمع والمطر. فالمطر يطهر، أحيانا، ما لا تطهره الكلمات؛ لأن الكلمات تجرح المعنى دون أن يقصد أصحابها. أما المطر، فلغته بيِّنة طيِّعة.

لأول مرة أحست بصدق شخص معها، وبالأمان الذي افتقدته داخل الجامعة بأسوارها الباسقة، وداخل حجرات الدرس.

لأول مرة أحست هي باللذة ولم تكن هدفا للذة أحدهم. أخذتها من يدها المرتجفة إلى "المجبنة"، ولعلها، حينما أخذت بيدها، تذكرت أستاذها سنة ٢٠٠٢. تناولتا حساءً ساخنا من الخضروات والدقيق، أخرجت الصديقة من حقيبة يدها منشفة بها رائحة تشبه رائحة زهر اللوز ومدتها لها لتنشف بها جسدها.

أمسكت المنشفة بعد تردد دام بضع دقائق، ولم تنبس أي واحدة منهما ببنت شفة. كان الصمت سيد اللقاء. فالمواعيد الأولى لا يثرثر فيها سوى الكاذبون، والخائفون، والعابرون، وأصحاب حاجاتهم، وذوو العنفوان واللذة الزائدين. الصمت في هذه المواعيد حكمة لا ثمن لها. الصمت في اللقاءات الأولى يُخيف، ويُقنع الآخر بضرورة استمراره في اللعبة حتى يكشف عن المسكوت عنه، وحتى يكشف عن الحقيقة ويسقط القناع، وحتى لا ينعت في خيال الآخر بالخائن أو المتخاذل. العلاقات التي تنتج عن اللقاءات الصامتة أكثر نجاحا من لقاءات الثرثرة والأصوات العالية

لا يزالُ المطر يتلذذ بإحداث ثقوبه على الأرض الطينية، ولا يزال يلح على ثقب المسطح منها. المطر يؤمن أن كثرة السقوط وإغفال الأرض كفيل بشقها، واختراقها، وثقبها.

المطر، أيضا، يمارس غوايته، وغريزته على الأرض ويتلذذ بذلك، والأرض تتلذذ، هي الأخرى، بسقوطه. فهي لا تتوانى، بعد مرور أيام وأسابيع،

أن تعكس له صورة الخصوبة والحمل والولادة؛ فهي تهتز، وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج.

اللذة كامنة، إذن، في كل عناصر الكون، وهي سبب من أسباب الحياة، ولعلها الأساس الذي لا غنى عنه.

إن اللذة إن تحكمت وتمكنت في الإنسان قتلت، فيجب عليه أن يظهرها للآخر، لا أن يُنزلها عليه كالصاعقة. فالسماء قادرة على رمي الأرض وقت، وكيف شاءت، إلا أنها تُنبئها عبر السحاب، والغيوم، والرعد، والبرق، وإخفاء الشمس...وحده الإنسان يُلقي لذاته وأثقاله دفعة واحدة ودون سابق إنذار، ثم يأتي، بعدها، يلقي معاذيره، وتأسفه، وتأففه.

لا تعتذر أيها الإنسان، فلا الأعذار تنفع في غير وقتها، ولا اللذة لذة دون وقتها؛ بالتأثيث لها ولطقوسها. فكل شيء قابل للانفجار، ولكن ليس الكل قادرا على التحكم في الانفجار، والتأثيث له.

رمت الفتاة يدها الباردة بيد صديقتها الساخنة، ومَضَتَا لبيع الجسد. تعلم أنها لم تخلق لذلك. لكنها إرادة الحياة القاسية، وفوضى اللذة والحواس، وسوء ترتيب المكان والأحداث في مكانها الصحيح، وسوء تقدير المسافة، واختيار الأصحاب...جعلها تكون ضمن هذه الأحداث المبعثرة كورقة تذروها رياح اللذة.

حبٌ في العتمة

"اتخذته شيخا؛ أشربها بوله"

تخيل نفسه في عالم آخر غير الأرض، وفي مكان غير الماخور. النساء، هنا، يشبهن الحور العين. فلا وجود للأجساد المكلومة والمعطوبة كما في الشارع. لا وجود للكلام النابي، وزحمة المواصلات، وتقيّؤات المارة، وخرائهم الذي يَغزو أسفل الأسوار والجدران في كل مكان...لا مجال للخطأ هنا. لاشيء سوى الجسد بكل تفاصيله، وقداسته، وقدسيته، وما يحقق قيمته ووجوده.

تساءل عن الأرواح: ماذا عن أرواح هذه الأجساد؟ هل تعيش، هي الأخرى، هذا المستوى العالي من الرفاهية؟ لا شك أن الجسد، غالبا، انعكاس لما في الروح، خاصة حينما لا يكون المال سيد المو اقف.

تقدم بخطوات بطيئة يتفرس وجوه الجِسان. يستغرب لما يحدث حوله، فلا أحد ينظر إليه نظرة استغراب، أو عداء، أو تقليل، أو قدح، أو امتعاض، أو قبول أو تباه. الكل يتصرف حسب هواه، وحسب حاجة جسده، ولا وجود لمن يُحاسب أو يَحكم. الجسدُ، هنا، حكمٌ ومحكوم.

تمنى لو أن الناس كلهم يتعاملون بالطريقة التي تتعامل بها النسوة في هذه العالم. لا يَلتفتن لأحد، ولا يَلمن أحدا على دخوله إلى عالمهن، ولا على انصر افه أو بقائه.

وبينما كان يوسف يخترق بعينيه الأجساد، ويمارس عليها غو ايته، وكَبْتَه؛ يتلذذ بها من المبدأ إلى المُنتهى، وقعت عيناه على جسد ليس

كالأجساد، كأنما نحتته أيادٍ بالأزميل. وصَاحبَ هذا النحتَ، في كلّ نَقرَة، مُوسيقى هادئة تسَلّلت إليه عبر مَسَامه؛ قطرة، قطرة، وهمسة، همسة، ونغمة، نغمة.. رأى في عيني الجسد رؤيا، وفي شعره قصيدة، وفي ثغره ليلا معتصرا، وصباحا نديا.

اقترب حتى قلّص المسافة، ثم أدركتْ أنها الهدف والضحية. أدركتْ أنها المبدأ والمنتهى، وأنها الميناء الذي سيرسو عليه، والعشّ الذي سيحط عليه، ويُفرغ فيه همومه وشجونه القديمة. هي شاطِئ الأحزان والأفراح، وجزيرة للنَّجاة من أهْوال البحر، وبِناء عشٍ جديدٍ يرمّم فيه قلبه الصدئ المُنفطر الذي لا يزال ينزُّ دما. ولعله يَعْتَرِف لها بتلك النشوة التي غزت مفاصله لحظة دخوله، وأنها ازدادت توهجا لما رآها.

قد يصدقها القول، منذ اللقاء الأول، أن شيئا ما أصابه في قلبه؛ فأثر له على نبضه، وعلى ضخ الدماء في الشرايين، وأنه أحس باختناق شديد، وارتفاع حرارة جسده، وارتباك كاد يؤدي به إلى وعكة صحية.

لكنها، للأسف، لم تبدِ له أدنى تعاطف لحاله. فكل الذين مروا من هذا المكان أحسوا بما يحسه الآن أو أكثر. هكذا تقلبت الفكرة في ذهنها. فلوصف اللذة، لا موسوعة اللاشعور تسعفُ المرءَ، ولا معجمُ "فرويده" كلّه سَيُسْعِفه. وحده الجسدُ، بكل تفاصيله، سيتخطفه كما تتخطف الشياطين والجن خبرَ السماء، وتعود به إلى وَعيه، مثلما تَعود الشياطين، حين تجد شهابا رصدا. ومع ذلك كله، فقد خفق قلبها الصدئ له؛ لابتسامته، وأرقه.

يا للذة. كيف لها أن تفعل بالمرء كل هذا الهراء؟ وكيف لها أن تدفعهُ لحزم أمتعته، ويُسافر إلى مكان، نقطة، مجهول، خَرَاء، خواء، هُراء، جنة...ليُحقق لها حاجتها؟

كيف لنا أن نسافر إلى المجهول من أجل اللذة؟ متى سقط الإنسان من مستواه المُكرّم إلى مستوى الحقارة واللذة؟ وهل اللذة، فعلا، حقارة؟ أليست هي الأصل، وما تلاها، من أخلاق ولذات، فروع ومنظومات مصطنعة؟

تذكر كلام صديقه أسي هشام الأستاذ المتقاعد: "إن اللذة وحدها تدفعنا لارتداء قميص معين، وتناول طعام معين، واختيار عمل دون آخر. تذكر، يا صديقي، أن اللذة كانت سبب نصف موتى المقابر؛ الذين ماتوا في حروب الطريق تلذذوا القيادة بسرعة مُتَخَطّفة، والرغبة في إثارة لذة المارة. الذين ماتوا انتحارا ماتوا لأنهم لم يحققوا الوصال مع الأحبة، فاختاروا الموت. حتى الموت وهو يتخطفنا، فهو يتلذذ بنا".

اللذة سبب تمسكنا بالحياة، وهي سبب تهورنا وسبب الموت المفاجئ.

اللذة دفعت بالنساء إلى التعطر، والتزين، والتمايل بالجسد. واللذة دفعت بالرجال إلى شم العطر، و إتباع النسيم المنبعث من كل جسد متمايل معطوب. لولا اللذة لما صنع العطر، ولما أنتجت الشركات آخر ماركات الأحذية، والماكياج، والأكسسورات، والأثاث، ولما نظم الشعراء القصائد، ولما حفظها العشاق كي يقرؤوها على مسامع عشيقاتهم، ولما كشفت الأرض عن نفسها تحت القمر، ولما فتحت الأرض التراب للمطر.

لولا شعور الأحرار باللذة في الاستعباد، لما اتخذوا إخوانهم عبيدا وخدما. ولولا اللذة التي يجدها العبيد في خدمة الأسياد لما أطاعوا ساعة، ولَفكّروا في كسر قيد الرق والعبودية.

اللذة مجرى مائي في كل إنسان. كُلّ وكيف يستخدم ماءه؛ منهم من يتطهر به، ومنهم من يدنس به نفسه، ومنهم من يحافظ على جريانه داخله إلى أن يجد له مخرجا، فيهلك الحرث والنسل، أو يثور على المجتمع وقوانينه وأعرافه.

يقترب من حبيبته. نعم، لقد أحبها؛ لأنه رأى وجهها كم مرة. لكن ذاكرته الثملة باللذة لا تسعفه. هل رآها في عالم الواقع، أم في عالم الحلم؟

لا يستطيع أن يتذكر، ولا أن يحدد، أو يميز. لعله أصيب بعمى الألوان، والأماكن، والأزمنة؛ فاللذة تعمي صاحبها، وتبعثر له العوالم بعد أن تخلطها.

رأى انعكاس صورته من شدة جمالها، ولمعان جسدها الندي، الطري، المدهون بمسحوق تفوح منه رائحة تشبه رائحة زهر اللوز. رأى لحيته الطويلة البيضاء، وطاقيته الصغيرة التي تشبه طواقِ الرهبان اليهود. رأى، أيضا، "فوقيته" المنكمشة بين الرّكب من كثرة الركوع والسجود. إنها تشبه في هيئتها ولونها أوراق الأشجار في الخريف. تشبه تلك الأوراق الأخيرة التي لم تيأس أبدا من التمسك بالحياة الخضراء. لكنها في الأخير استسلمت للذة الخريف.

ربما دفعتها وريقات صغيرة، بعد أن أنبأتها بالخروج، إلى الوجود. أنبأتها، أيضا، أن وقتها قد حان لتعيش، وتخضر، وتتولى مهمة تغطية وكسوة

الأغصان. وربما سقطت؛ لأنها تعلم أنها لن تتحمل ما رأته من لذة، حولها، في سنتها الماضية. وربما؛ لأن الشجرة يئست أغصانها من ثقلها الزائد، وإطعامها، وسقيها لسنة كاملة دون أن ترى منها نفعا، فقررت أن تتخلى عنها وتغيرها مثلما تغير أفعى جلدها كل عام.

نعم، تتخلى عنها بهذه السهولة، وببرودة أغصان. نعم، تتخلى عنها بعد أن علمت أن الخريف يعقبه الشتاء، وأنها أشد حاجة إلى هذه الأوراق لتقيها صقيع الشتاء. ورغم ذلك، فالشجرة لا تبالي. فحتى الإنسان قادر على التخلي عن أحبائه وقت الشدة ليبرهن لهم أنهم مجرد أوراق لا أقل ولا أكثر. فالأوراق تأتي وترحل، والأحبة يأتون ويرحلون حين تكون الشجرة هي اللذة.

حدق في عيني حبيبته بعنف، بقوة، بلذة، بلهفة...ورأى كل فصول السنة. رأى نفسه داخل حجرته يلقي الدرس على طلابه: درس اليوم بعنوان: "التعفف في الإسلام". رتل الآيات الواردة في الكتاب في وجهها، وطلب من بعض الطلاب تلاوتها، وصحح لهم بعض الهفوات؛ نبه إلى المد، والقلقلة، ودعّم بعض التعثرات...شرح الدرس بإتقان وهو ينظر إلى الفصول يُسلِم بعضها إلى بعض.

صدمه صوتها الملائكي: "تفضل يا أستاذ".

- إلى أين؟

- إلى حيث تنزع لباس التقوى والتعفف، وترتدي لباس اللذة..!

تنهد، تنحنح، أحس بالخجل، وحاول أن يغير تجاه نظره تلقاء الباب. تراجع عن فكرة الباب؛ لأنه سيسلمه إلى الشارع دون أن يجد للذة مفرغا ولا مصبا.

في لحظة تأمله هذه، جاءه الصوت مجددا:

- "شوي لربي، شوي لعبدو". هذه هي حالة الإنسان. لا يمكنه أن يظل على حالة. لا يمكنه أن يظل في المسجد طُول الوقت، ولا يمكنه أن يظل في الماخور طُول الوقت. اللذة الواحدة تقتل؛ أقصد "الروتين".

تعجب من مستوى المُحاججة والإقناع اللذين تتمتع به.

- هل تفهم حالة الإنسان؟ هل يعلمونها، في هذه الدار، دروسا عن العقيدة، والدين؟ تكفيها اللذة التي هي قابعة فيها. فهي منتشية بها، ولا سبيل للخروج منها.

ظل حائرا في تساؤلاته. مهزوما كان؛ كمن انتشى باللذة الإيروسية. شدّت يده وضغطت بكفها على كفه، وخللت أصابعها بأصابعه، وامتزج عرق كفه بـ"الكريم" الذي دهنت به يدها، اتجهت به إلى غرفة بفراش لا عين رأت، ولا أنوف شمت ما شمت أنوفه.

ها هو أمام هدفه. لكن اللذة لعنة؛ تجيء وتروح؛ تتوهج وتنطفئ، تشتعل وتخمد، تضيء وتعتم.

- ما بك يا أستاذ؟

أحس بثقل العبارة. استشعرها تتهاوى عليه، فينهار. نعم، ينهار مثلما ينهارو اقف بلذة النوم.

- كيف لها أن تعلم أنني أستاذ؟ وهل كانت من طالباتي ذات زمن مضى؟

دقق النظر في وجهها البريء، فلمح شيئا منه في عينيها. فكل أستاذ يترك جزءا من شخصيته ولذته وروحه في طلبته.

الفهرس

عودة الروح	٧
انتقام	١٣
الكتاب المحروق	١٩
طالبان	٢٩
مطـــر	٤١
صلاة الاستسقاء	٤٣
في الحقول	٤٧
أطراس في الذاكرة	٤٩
تغير الحلم	٥٣
المعلم	٥٧
المنسي	٦١
زواج	٦٥
مجازفة	٦٧
قال نسوة	٧١
نسوة على شفا جرف	٧٥

ماذا لو..؟	٧٩
طهارة	٨١
ليلة القدر	٨٥
وجه المغاربة الآخر	٨٧
الحداثة..	٨٩
الكلاوي	٩١
موت قلب	٩٣
رحلة	٩٥
العياشي و"الهندية"	٩٩
حلم العودة إلى باريس	١٠١
اعتر افات أولى	١٠٥
بدو في العراء	١٠٩
محاكمة	١١١
غِو ايات المطر	١١٣
حبٌ في العتمة	١١٩

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017